H A D I Y A   H U S S E

هدية حسين

ريام وكفى

رواية
NOVEL

@ketab_n
5.2.2015

ريام وكفى

هدية حسين

Twitter: @ketab_n

يحتاج الحجر لكي يصبح منحوتة إلى ضربات كثيرة

مثل هندي

Twitter: @ketab_n

احتشدت السماء بنجوم لم أر مثل عددها وتوهجها من قبل، كأنها خرجت في مهرجان تحتفل بألقها أو بمناسبة ذكرى عزيزة عليها، منعشاً كان الهواء وأنا أتمدد على سرير حديدي فوق سطح بيتنا القديم في ليلة من ليالي نيسان وأستحم بالأحلام باحثة عن نجمي وسط هذا الكم الهائل من السطوع.. يقولون إن لكل إنسان نجماً في السماء يُحدد خطواته ويرعاه.. وفي كل ليلة أتساءل: أين نجمي؟ على يمين القمر المشع أم ذاك الذي يومض على يساره ويتحيّن الفرصة لكي يزيحه ويسطع بنوره؟ والنجمُ مسار فلماذا ضللت مساري، وكيف ركضت بي السنين على حصان أهوج تدفعه ريح مجنونة حتى ليتعذّرعليّ لملمة الوقت وأنا أغذ السير إلى الصحراء الموحشة من العمر؟ وحدي، يمر بي الزمن ويعبرني تاركاً لي فسحة صغيرة في كونه الشاسع الملغّز، فسحة أحاول جاهدة أن أوسعها برغم أنها لا تسعفني بالقدر الذي تضيّق علي، يتخلخل زمني من خلالها بين شد وجذب، أذهب إلى النوم وأتذكر أنني قبل قليل كنت قد نمت، وأصحو فأتساءل كيف مرّ الوقت بهذه السرعة العجيبة، ألستُ قد صحوت قبل ساعتين أو ثلاث؟ يأتي المساء بلمحة ثم ينبثق الصباح بسرعة البرق، كيف تداخلت الساعات وانكمشت إلى هذا الحد؟ هل انفلت الزمن من عجلته التي كانت تسير على مهل؟ وأين ذهب ذاك الزمن الذي كان يتمطى ويستطيل ويغرقني بالأحلام؟ كيف اجتازني بسرعة لم أنتبه إليها وتركني لزمن مرتبك؟ هل لي أن ألحق به وأستوقفه لأسأله: لماذا فعلت بي ذلك؟

وبين مساء يأتي سريعاً وصباح يحيرني انبثاقه، وقفت وتأملت ونظرت إلى الماضي، بدا الأمر أشبه بفيلم مُعد على عجل، ورأيتني هناك، إسمي منقوش بحروف بارزة على التايتل، بموسيقى مختلة السلالم.. هكذا رأيتني، بعد ماراثون طويل وصلت، كنتُ ألهث، أنفاسي تكاد تتقطع، تعثرتُ كثيراً وأنا

Twitter: @ketab_n

أركض، سقطت وقمت أشد أزري وأركض ثانية على أرض مستوية، متعرجة، زلقة، رملية، حجرية مسننة.. لا لم أصل تماماً، مايزال أمامي طريق ليس بالطويل لكنه أيضاً ليس قصيراً، توقفت لآخذ استراحة ونظرت ورائي، لم يكن من أحد ينافسني، ولم يكن هناك جمهور يترقّب نتيجة من سيقف على منصة الفوز.. فلماذا كنت أركض إذن؟

حين نخرج إلى الدنيا من ظلمات كانت تسرّب لنا الدفء لا نفكر بالزمن، ربما راودتنا أحلام شفافة لكننا لم نعد نتذكرها ولا ندرك شكل رؤاها، النقطة التي انطلقنا منها كبداية لماراثون الحياة تغدو الان نائية جداً وضبابية ثم ننساها في خضم الركض المتواصل، نريد أن نصل قبل الآخرين، نركض ونلهث، ثم ما إن نصل حتى تكون سنوات العمر قد تبددت، وقد تتبدد قبل أن نصل، وربما يأتي الوصول في وقت لم نعد فيه نحلم بامتلاك شيء.

ولأن نجمي قد نأى واختفى أثره تاركاً لي حفنة من ذكريات لا فائدة منها الآن إلا لتزجية الوقت بين مهنة أتعبتني ووجوه ما تزال تلاحقني وتدور من حولي برغم اختفائها عن حياتي، ولأن جمرة الحب ذوت وشياطيني في مخابئها انزوت، لذا سأقول كل ما لدي على هذه الأوراق قبل أن يدركني الوقت وأنزوي، وقبل أن ينزع الزمان عن جسدي بقية البريق، أعرف بأن رأسي سيهدأ ذات يوم، ينفض الوجوه والتعب والخطايا والأفراح الصغيرة والمناكدات والصبوات والشهوات والأوجاع، يسّاقط الحب الذي كان وتخبو الأشواق وتتلاشى كأنها لم تكن، ستمضي الوساوس وسيخفت الصخب ويلوذ بالصمت تاركاً وراءه ما يشبه الرمل الذي ستذروه الرياح وترميه إلى شقوق الأرض.. لهذا كله، أريد أن أحرك المياه الراكدة في أعماقي قبل أن

Twitter: @ketab_n

يجف نهري أو تأكل حوافه الأملاح مستفيدة من تلك اليوميات التي كنت أدونها وأنا في عشرينيات عمري، تفاصيل كثيرة كدت أنساها لولا تلك اليوميات، مهنتي لا تساعدني على البقاء طويلاً في هذه الحياة ولن أعيش بعد موتي سوى زمن عابر على أجساد النساء اللواتي يتخلصن من الثياب التي تصنعها يداي بعد أن يشعرن بالملل منها أو يتهرأ نسيجها، نعم أريد أن أكتب قبل أن يمحوني الزوال ..هل أنا في طريقي للزوال؟ هل أمضي إليه دون أن أترك ما يحمل شيئاً على الأرض يُخبر عني بأنني جئت إلى الدنيا وحملتُ اسمين لم يمنحاني حسن الطالع؟ وبأن ثمة نساء جاهدن لكي يمسكن بأطراف الخلود حتى وإن كان هذا الخلود حفنة أوراق لا أكثر؟ لعل أوراقي تبقيني بعد موتي، لعلّ أبنائي الذين لا أعرف متى سيجيؤون للدنيا يقرؤون ما أكتب، أو أن أحداً سيقرؤها ذات يوم ويتذكرني، أما الثياب والعباءات التي أخيطها والتي تكتسب روائحها من أجساد النساء فإنها تبلى بعد حين، ولذلك قلت لفاطمة وأنا أنهي آخر مرحلة من العباءة التي أعمل عليها منذ أسبوع: هذا يكفي، اعذريني لم أعد قادرة على العمل سآخذ استراحة، أنت أيضاً بحاجة إلى الراحة، يمكنك زيارة الأهل لكي تستعيدي نشاطك، سأعد الشاي ونشربه معاً ثم اذهبي للاستمتاع بإجازة، تعالي بعد أسبوعين وسنرى ماذا نفعل.. نظرتها لي كانت طويلة ومتأملة، هي تعرف بأنني قد أغير رأيي في أية لحظة وأعود للعمل فهو موردي الوحيد الذي أعيش منه، جلسنا في الصالة وشربنا الشاي مع قطع البسكويت وقبل أن تحمل فاطمة الصينية وتذهب إلى المطبخ سألتني: ماذا ستفعلين خلال الاستراحة التي ستمتد أسبوعين؟ قلت لها: سأكتب..تحوّل كل وجهها إلى علامة استفهام فقلت قبل أن تسأل ثانية: أحس برغبة لكتابة رواية عن حياتي.. ابتسمت واستفسرت: هل ستنشرينها؟ أجبت: لم أفكر بذلك الآن، عندما أنتهي منها سأعرف فيما إذا كانت تستحق النشر أم لا، إنها رغبة تراودني

Twitter: @ketab_n

منذ فترة طويلة وبدأت تلح عليّ، خصوصاً وأن لي محاولات سابقة في الكتابة، لذلك سأمنح نفسي الفرصة في كتابة رواية، ولا أدري إذا ما نجحتُ في ذلك أم أخفقت.. ابتسمت وبرق في عينيها وميض وهي تقول: إذا نجح الأمر معك أتمنى أن تكتبي رواية عن حياتي.. آه كم تستحق حياتي أن تكون رواية مكتوبة.

حملت الصينية ومضت إلى المطبخ وبعد قليل عادت لتسأل: وعملنا هل سيتوقف مدة أسبوعين؟ قلت لها: نعم، مؤقتاً، أنت تعلمين حال السوق هذه الأيام.

ردت بالقول وما تزال على وجهها بقية استغراب: إذن سأذهب ولن أعود إلا بعد أسبوعين، وتكونين قد أكملت الرواية.

ضحكتُ من أعماق قلبي ثم قلت: الرواية لا تكتمل في أسبوعين، ربما ستستغرق سنة أو أكثر، فتحت عينيها دهشة وقالت: هل سيتوقف رزقنا كل هذه المدة؟ طمأنتها: كلا، لكن البداية تتطلب مني التفرغ واختبار قدرتي على الكتابة، وبعد ذلك سأكتب في الأوقات التي لا نعمل فيها..انفرجت أساريرها وودعتني، لكنني التقطت عبارة قالتها همساً ولم أعلق عليها: الله يشفيك.

أوصلتها إلى الباب الخارجي، أغلقته وعدتُ للصالة مسرعة كأنني أهرب من شيء يتبعني، وقفت عند النافذة ورحت أنظر إلى عريشة العنب، أتأمل العناقيد وهي تتدلى مثل ثريات، في بداية صيف يبدو أنه سيبكر بالحرارة، وأتأمل معها سنوات عمري وأنا أقف في منتصف المسافة بين الثلاثين والأربعين، مع كل الذكريات التي مرت بي، ومع أشباح الموتى من عائلتي، وأرى

Twitter: @ketab_n

نفسي أقف على ضفة النهر القريب بانتظار ذلك الفتى الذي اسمه ريحان لنعبر في زورق يتهادى مع الأمواج ويمضي بنا إلى الضفة الأخرى، أو ندخل المقبرة الانكليزية ونتجول بين قبورها، ونتوقف مطولاً عند قبر المس بيل التي ربما تكون قد استمتعت بحكايات ريحان عنها وتمنت لو عادت إلى الحياة لتسمعنا حكايات أخر طواها الزمن.

سحبتني عناقيد العنب إليها مجدداً وتذكرت كيف كنا نتحلق حول أمي تحت عريشة عنب أخرى في المكان ذاته كانت مكتظة بعناقيدها، وقبل أن تختلط عليّ الذكريات وتشوشني هرعت إلى الأوراق التي أعددتها وبدأت أكتب كأنني كنت أنتظر هذه اللحظة طوال ما مر بعمري من سنين.

أنا كفى ياسين الفضلي كما قرر أبي أن يسميني في شهادة الميلاد لتكف أمي عن إنجاب المزيد من البنات، بينما يحلو لأمي أن تناديني باسم ريام، الاسم الذي أحبّته ولم يُعجب أبي وجدتي مسعودة فظل كل واحد منهما يناديني باسم كفى عناداً بأمي، أنا البنت الثالثة بعد هند الأكثر شبهاً بملامح أمي وتشبّهاً بسلوكها، بيضاء البشرة سوداء العينين ذات حدة في طبعها تنتابها من حين لآخر بسبب أو من دون سبب، وصابرين ذات المزاج الرائق والطبع المرح والضحكات الرنانة بشرتها بيضاء صافية وعيناها قهوائيتان غامقتان، وأنا النغمة النشاز بينهما، حنطية البشرة، سريعة الإثارة، بعينين ناعستين وماكرتين وبقامة متوسطة وجسد رشيق، وبسلوك حيّر أبي وأتعب أمي.

سأحاول هنا أن أكتبني على الورق دون مغالطة وبلا خجل، وعليّ من أجل ذلك أن أضبط حدود خارطتي لكي لا أنسى بعد عشرين عاماً أو أكثر تفاصيل حكايتي، أكتبني لأحيي تلك الأيام بعد موتها وأعيد لها الحياة قبل أن تختفي في ثقوب النسيان، وسأبدأ من الطفولة وأتوقف عند ذلك اليوم التشريني

Twitter: @ketab_n

الغائم الذي قادني فيه أبي إلى المدرسة وهو يمسك يدي بشدة لا أعرف سببها، لكنني أدرك أن أمراً خطيراً بانتظاري، يمشي صامتاً، تاركاً لي فسحة من الوقت للتساؤل: لماذا أصرّت المديرة الثخينة ذات الشعر الأحمرعلى إحضاره بعد أن رفعت سبابة يدها بوجهي مُحذرةً إياي من العودة للمدرسة ما لم يكن أبي بصحبتي؟ غاضبة وقاسية النظرات كانت، كأنني سرقت منها شيئاً أو قمت بجرم فاحش، مع أنني المتميزة في جميع الدروس.

حالما دخلنا المدرسة توجه أبي إلى غرفة المديرة، كنت لمّا أزل في بداية العام الدراسي من الصف الرابع الابتدائي، لم أكمل بعد التاسعة من العمر، طرق أبي الباب المفتوح فرفعت المديرة الثخينة رأسها وأزاحت خصلة الشعر الحمراء من على عينيها، كانت تقرأ في دفتر، وعلى الطاولة فنجان قهوة، رائحة القهوة تضوع في أرجاء الغرفة مختلطة بالعطر ذاته الذي ينبعث من جسدها كل صباح أثناء الاصطفاف اليومي للتفتيش لئلا تكون واحدة من التلميذات قد أطالت أظافرها أو ارتدت قميصاً ياقته وسخة أو غير مكوي... ما إن رأتني بعد أن أزالت خصلة الشعر الحمراء حتى ازورّ وجهها ورمتني بنظرة متوعدة سأعرف سببها بعد قليل.. وقف أبي قبالتها وحياها فلم ترد على تحيته بل قالت بعصبية:

- إسمع يا سيد ياسين، ابنتك هذه لا أريدها في مدرستي، إنها تُفسد أخلاق التلميذات.

أبي الذي لا يعرف عن ماذا تتحدث المديرة حتى تلك اللحظة ردّ عليها:

- يا حضرة المديرة، كيف لهذه الطفلة الصغيرة أن تفسد أخلاق التلميذات؟

Twitter: @ketab_n

علا صوت المديرة بحنق:

- هل تعاشر نساءك أمام مرأى ومسمع ابنتك يا رجل؟ هل تضعها في السرير عند المعاشرة؟

شعر أبي بارتباك والتفت إليّ فغضضت النظر، كان وجهه مخطوفاً ونظراته قاسية، أظن أنه كان يبحث عن كلمات لم يجدها في الحال فقال كلمة واحدة ريثما يعثر على بقية الكلمات:

- أنا؟

ردت المديرة ساخرة:

- وهل أتكلم مع رجل غيرك في هذه الغرفة؟

صمت أبي لأنه ما يزال يبحث عن كلمات فاستأنفت المديرة:

- ابنتك هذه تحكي للتلميذات بأنك كل ليلة.....

سكتت قليلاً وأزاحت خصلتها الحمراء داسّة إياها خلف أذنها ثم أردفت بصوت خفيض:

- أنت تعرف ماذا تفعل يا رجل.

Twitter: @ketab_n

كان أبي في هذه اللحظة يجفف بمنديله العرق الذي نبت على جبينه، وقال متلعثماً:

- أنا متزوج من امرأتين أيتها المديرة، وربما إحداهن كانت....

قاطعته بعصبية وبصوت أعلى:

- هذا أمر يخصك، مثنى وثلاث ورباع، المهم عندي أن هذه الأمور شخصية وتدخل من ضمن الأسرار ومن العيب أن يطلع عليها الأطفال، الحياء يمنعني أن اقول لك ما تخبر به ابنتك التلميذات، أخرج الآن وابحث عن مدرسة أخرى، ورقة النقل جاهزة.

في الطريق إلى البيت كان أبي الذي مايزال يتصبب عرقاً يكز على أسنانه، يشتمني ويتوعدني بأنه سيرميني إلى السرداب لأعيش مع الجرذان والحشرات، وكان يشدد من قبضته على أصابع يديّ النحيفتين فأشعر بالألم لكنني لا أصرخ ولا أتأوّه.. وما إن دخل البيت واجتاز نصف الممر حتى كفخني على وجهي وأسقطني بقوة على البلاط وداس على رأسي بحذائه الجلدي الخشن وسط دهشة زوجته الثانية (بهيجة) التي كانت تجلس على الكنبة الخشبية في الطارمة وتلاعب ابنها محمود ذا السنوات الأربع، بينما بطنها يبرز إلى الأمام.. كانت أمي قرب شجرة البرتقال بيدها صحن تقطف أزهار القداح وتضعها في الصحن، وحينما تفعل ذلك فهذا يعني أنها تنوي أن تصنع منها قلادات لبناتها، أو تضعها على المائدة في صحن فيه ماء ليعبق البيت بعطرها الشذي.. وبعد أن رماني أبي إلى الأرض وصرختُ من شدة السقوط رمت أمي الصحن من يدها فتساقطت الأزهار على العشب وهرعت

Twitter: @ketab_n

نحوي صارخة فأسكتها أبي وجعلها تقف مكانها مذهولة وقال بصوت مجروح:
- ابنتك هذه فضحتنا يا أم البنات، كل ما يحدث بيننا في الفراش تحكيه للتلميذات.

كنت متكورة على جسمي مثل قنفذ منزوع الأشواك، أنشج بصوت واطىء وأصابعي ترتعش، وحينما سمعت بهيجة ما قاله أبي أطلقت ضحكة متموجة زادته غضباً، فصرخ وهو يرفسني:

- لا مدرسة بعد اليوم وستنامين في السرداب.

ثم تحركت أمي لإنقاذي وبينما هي تتدافع مع أبي زحفتُ من على البلاط إلى حافة الحديقة وسقطت على الشريط الترابي الذي هيأته أمي يوم أمس لتزرع فيه شجيرات الحناء فتعفر وجهي بالتراب الرطب، لكن أبي دفع أمي بقوة وجرجرني، جدتي مسعودة التي خرجت في هذه اللحظة صبّت البنزين على النار في قلب أبي عندما قالت: لا تتهاون معها، دلال امها أفسدها، قالت ذلك دون أن تسأل عما حدث وراح أبي يسحبني إلى السرداب فانقلبت على ظهري إلا أن أمي أشارت إلى بهيجة بتوسل من وراء ظهر أبي أن تفعل شيئاً، وبهيجة هي الأثيرة عند أبي بعد أن أنجبت له الولد الذي كان ينتظره وهي التي عرفت كيف تروضه وتخفف من فيوض غرائزه باتجاه نهرها الذي لا ينضب، فصارت لها المكانة والقول المسموع، تركت ابنها محمود ولحقت بأبي لتخلصني من بين يديه وتقول له: من أجلي اتركها هذه المرة.. كان الرعب قد تمكن مني، كيف أبقى في السرداب المعتم مع الحشرات والجرذان؟

**

Twitter: @ketab_n

السرداب في بيتنا القديم، غرفة مستطيلة تحت الأرض، ننزل إليه بعد خمس عشرة درجة، والدرجات مثلومة الحواف بفعل قِدم البيت، معتم إلا من فتحة صغيرة قرب السقف لا تسرّب الا القليل من الضوء الشحيح بما يسمح لرؤية نقطة الكهرباء التي ما إن نضغط عليها حتى ينتشر ضوء النيون ويكشف عن المحتويات، جدران السرداب جصية متآكلة بفعل الرطوبة، ومحتوياته من كل ما لا فائدة منه، لكن أبي يرفض التخلي عنها ويقول: سنحتاج إليها يوماً ما، وقد تراكمت تلك المخلفات سنة إثر سنة دون أن نحتاج إليها.. كراسي مُخلّعة المساند، طاولات خشبية وبلاستيكية، لوحات تجارية لا قيمة لها، صندوق معدني يحتوي على عُدة من قطع حديدية مثل الجواكيج والمسامير والبراغي بمختلف الأحجام، تلفزيون عاطل، راديو كبير نوع فيليبس ورثه أبي عن جدي وهو الآخر عاطل، فوانيس وشمعدانات ورؤوس غزلان خشبية، وايرات وحبال وموصلات كهربائية... وعدد لا يحصى من الحشرات التي لا تدري من أين جاءت واتخذت مساكن لها تمشي بخيلاء دون خوف، أنا التي أخاف كلما هددني أبي بالسرداب، أنا الوحيدة من بين البنات من تُهدد بالرمي إلى السرداب، لوقاحتي كما تردد جدتي مسعودة، ولولا (بهيجة) التي لحقت بأبي لقضيت ليلتي في ذلك المكان ولما عدت لمواصلة الدراسة في مدرسة أخرى غير بعيدة عن مدرستي التي طُردت منها.. كثيراً ما تلجأ أمي إلى بهيجة في مثل هكذا حالات لأنها تعرف مكانتها عند أبي برغم أن أذنيّ كانتا تلتقطان عبارة ظلت عالقة في ذهني لسنوات: الضرّة مضرّة.. سنوات عمري القليلة وقتذاك لا تستوعب معنى العبارة، كما أن أمي لم تبح بأحزانها أمام بناتها الصغيرات..وحتى بعد سنوات من موت بهيجة لم تفرد لها أمي مساحة من ذكرياتها لتحكي عن معاناتها بعد زواجه من ضرتها وإهماله المتعمد لها، بل دأبت على مواصلة الحياة كأنها ولدت من جديد بعد موتهما.

Twitter: @ketab_n

منذ طفولتي كنت أبحث عن المختلف وعن كل ما هو مغلق لأفتحه وأعرف ما بداخله، فعندما طرح أبي ذات يوم سؤاله علينا، نحن بناته الثلاث: ماذا نحب أن نكون في المستقبل، كانت إجابة هند وصابرين متشابهة: أريد أن أصبح خياطة مثل ماما، بينما قلت أنا: أريد أن أصبح كاتبة، لم أكن أدرك تماماً ما قلت، لقد سمعت العبارة من طفلة معي في الصف، نظر أبي إليّ مندهشاً وسألني: ماذا ستكتبين؟ تبرعت جدتي المنزوية في ركن الصالة تسبّح: تكتب أدعية لطرد الأشباح.. وعلى ذكر الأشباح، يحلو لي أن أنزل من السرير عند منتصف الليل وأمضي إلى الحديقة، في الليالي المقمرة أو حينما يغيب القمر فتتسيد الظلمة، أتنصّت إلى الأصوات الغريبة التي لا أسمعها في النهار، همهمات، خفق أجنحة أو خشخشة بين أغصان الأشجار أو أي صوت لا أعرف كنهه يخرج من بين شجيرات الآس أو من بين عبق الورود أو من قلوب الأشجار، وأحياناً أصعد إلى سطح البيت وأنظر إلى السماء المفروشة بالنجوم المشعة، وأتمنى ما هو مستحيل، أن تمطر السماء نجوماً، ترى ماذا يحدث لو فكرت السماء وأرسلت نجومها إلى الأرض على هيأة مطر؟ هل سنغرق في مائها اللؤلؤي أم تحترق أجسامنا؟ وذات مرة وأنا في الطارمة المطلة على الحديقة أتوغل في غابة الليل الغارق بالسكون، والظلمة تتشربني، رأيت شيئاً يتحرك قرب شجرة السيسبان، ثم فجأة انتقل إلى شجرة التوت ودخل بين أغصانها، شيء على هيأة إنسان بأطراف متعددة ورأس كبير، فشعرتُ بالرعب ودخلت البيت ولم أكرر الخروج ليلاً إلى الحديقة، وعند الصباح قلت لأمي بأنني رأيت شبحاً في الحديقة في منتصف الليلة الماضية، طبطبت أمي على كتفي وقالت:

- لا توجد أشباح، هذا يسمونه خداع بصر يحدث في الليل والنهار.

Twitter: @ketab_n

وطلبتُ من أمي تفسيراً لما رأيته في الليل فقالت:

- في الليل يسقط ضوء القمر على الأشجار، وأغصان الأشجار تتحرك بفعل الهواء فيتغير مسقط الضوء وبصرك يعطي إشارات خاطئة لدماغك فيرى دماغك ما تراه عيناك.. لم أفهم تماماً ما قالته أمي وبقيت مصرة على أنني رأيت شبحاً، وعندما تعجز أمي عن إقناعي فإنها تردد عبارة عندما تكبرين ستعرفين، صابرين صدّقتني ولم تصدقني هند المولعة دائماً بتبني رأي أمي، جدتي التي كانت تصلي بالقرب منا قطعت صلاتها وردت على الفور:

- الأشباح موجودة وتعيش مع البشر في كل زمان ومكان وملعون من لا يصدقها.

ثم التفتت نحوي وسألتني:

- هل رأيتِ الشبح على شكل إنسان أم حيوان؟

قلت:

- إنسان.

قالت وهي تسقط حبات مسبحتها:

- إذن فهو روح أحد المتوفين من أهلنا.

وعادت تواصل صلاتها فيما همست لي أمي:

- روح الميت لا تظهر للأحياء.

Twitter: @ketab_n

لو كانت أمي قد صدقتني لعارضت جدتي ونفت وجود الأشباح.. حكاية الأشباح هذه سأتذكرها في الأيام الأولى عند عودتي للبيت القديم بعد أن هجرته بسبب ظروف قاهرة.

**

Twitter: @ketab_n

لم أكن مشاكسة كما كانت أمي تقول عني، بل كنتُ وقحة، نعم وقحة، هذه هي الكلمة الأكثر ملائمة للوصف وإلا كيف أفسر ما تقوم به طفلة لم تبلغ التاسعة من العمر تختبىء تحت السرير وتتلصص على مايحدث بين أبيها وأمها أو بينه وبين زوجته الثانية بهيجة؟ ولطالما تساءلت: لماذا ينام ليلة واحدة في الأسبوع مع أمي بينما بقية الليالي من حصة بهيجة؟ هل من أجل إنجاب مزيد من الأبناء الذكور كما كانت جدتي مسعودة تقول لأمي مناكدةً إياها؟ أمي لا تثق بكلامها، وكم كانت تكرر بأن تحديد جنس الجنين لا علاقة له بالمرأة وإنما بالرجل وتروح تشرح لأبي وجدتي معلومات لم أكن أعيها في ذلك العمر المبكر، فكانت جدتي مسعودة تسخر منها وأبي يتجاهلها.. وعندما أنجبت له بهيجة الولد ظلت جدتي لفترة طويلة تنكد على أمي عيشتها مما جعل أمي تبحث، عن تسلية تعينها على الصبر، ولم تجد إلا مهنة الخياطة التي لم تكن تفكر أول الأمر في جعلها مهنة كما كانت تخبرنا مراراً لولا زواج أبي وتقتيره على (أم البنات) مثلما يحلو له أن يسميها متجاهلاً أن اسمها سمر، وزاد تقتيره بعد أن ولدت بهيجة ابنها البكر محمود فملأت جدتي البيت بالزغاريد طيلة ساعات النهار لتزيد من حالة القهر التي اعترت أمي ثم صارت تسخر كل يوم من معلوماتها حول مسؤولية الرجل عن تحديد جنس الجنين، ولا تتوانى بإطلاق ضحكات مجلجلة دون مراعاة لمشاعر أمي التي كانت تقابل سخريتها بالمزيد من العمل على مهنة الصبر، وتتعامل مع جدتي بحذر أو بسخرية مقننة دون أن تتمادى إذا ما أمعنت جدتي بالسخرية منها لكي لا يتحول الأمر إلى مشاكل يستعصي حلها، وكم حاولت أمي التودد إلى جدتي لإنهاء حالة الشد بينهما لكن محاولات أمي كانت تصطدم بعناد جدتي التي كانت تكرر لأمي المثل الشعبي: لو تصافت العمّة والجنّة جان ابليس دخل الجنة.

Twitter: @ketab_n

إنني أراهما كما لو أنهما ما تزالان تجلسان تحت عريشة العنب في حديقة البيت القديم، نحن البنات نتحلق حول أمي التي جمعت أزهار القدّاح في صحن وراحت تعمل منها قلائد وأكاليل لنا، وأرى بهيجة تجلس على كرسي من الخيزران وسط الحديقة، بينما جدتي ترقّص محمود لتغيظ أمي:

يُمّه الولد فدوة الولد
يسوه البنات بْلا عدد
يسوه البنات وأمهن
واخوالهن واهلهن

وترد أمي وهي تُلبس هند قلادة القداح:

هنّودة يا هنّودة
يم العيون السودة
تسوين عشرة منهم
بالافراح موعودة

تقهقه جدتي أثناء ما تلبسني أمي القلادة الثانية وترد عليها أمي:

ورْيام يا محلاها
طير السعد يرعاها
وردة قرنفل وتفوح
سبحان من سوّاها

Twitter: @ketab_n

ويعلو صوت جدتي:

محمود يا حماده
يا جالب السعاده
أمك بهيجة بهجة
وابوك نال مراده

فترد أمي ملتفتة إلى صابرين، واضعة إكليلاً على رأسها:

صبّورتي صابرين
يا شمعتي التضوّين
باجر تجي الخطابة
ويتنافسون الصوبين

وتلتفت جدتي إلى بهيجة مرددةً:

ياام الولد نامي رغد
بين الهنا وبين السعد
باجر يشب مثل الأسد
ويصيرلج عون وسند

بهيجة التي تجلس على مقربة من أمي وجدتي مسعودة تبدو محايدة، لا تتدخل وإنما تسمع وتستمتع وتنتظر المزيد لتضحك من أعماق قلبها وتتسلى طالما الترنيمات تصب في صالحها، لكنها لا تكن بغضاً لأمي ولا تحاول إثارتها، كانت تتصرف بتعقل لا يناسب سنوات عمرها العشرين وتحاول تطييب خواطرنا نحن البنات الثلاث عندما تجد من أبي إهمالاً متعمداً نحونا، لقد

Twitter: @ketab_n

حظيت هند برعاية أبي عند ولادتها متأملاً أن يأتي المولود الثاني لأمي ذكراً، وحظيت صابرين برعاية أقل، أما أنا، البنت الثالثة فلم أحظ بأية رعاية منه، كفّ أبي عن رعاية البنات منذ أول يوم جئت فيه إلى الدنيا وقال: كفى.. ثم تزوج من بهيجة، بينما أمي انشغلت بثلاثة أشياء لتشغل فراغ روحها، بناتها، والخياطة والاعتناء بالحديقة، وفي ذلك الوقت عندما كنا صغيرات غرست أمي فسيلة نخل، كنا متحلقات حولها وهي تحفر لها مكاناً وسط الحديقة وتقول لنا إن النخلة مباركة في جميع الأديان وهي الوحيدة الشبيهة بالإنسان، عندما يُقطع رأسها تموت، وبعد أن غرست الفسيلة وأثناء ماكانت تسقيها عاد أبي من العمل فهرعت هند إليه فرحة لتخبره عن الفسيلة، نظر مبتسماً وقال لأمي بنبرة يُشم منها الاستخفاف: ومتى نأكل التمر؟ ردت أمي دون أن تنظر إليه: بعد خمس أو ست سنوات، فقهقه عالياً وقال: موت يا كديش لمّن يجيك الحشيش.. ودخل إلى البيت.

**

وسّعت أمي من شغلها وفتحت محلها في شارع النهر، المحل الذي كان بالنسبة لها حلماً بعيد المنال وجاء بعد ثلاث سنوات من وفاة أبي، ولم يستمر العمل به لفترة طويلة، فقد سُرق في وقت كنا فيه نمر بظروف قاسية من الحزن العميق، سأتحدث عن ذلك في صفحات أخر، أما الآن فسأعود لأبي وجدتي مسعودة في هذه الصفحات، سأبدأ بأبي الذي يزاحمني على الحضور برغم موته منذ سنوات طويلة، وها أنا أستجيب لندائه الهامس الذي يخرج من ثغور رأسي، كان يعمل في بيع الأدوات الاحتياطية للسيارات والدراجات النارية وله محل في البياع، شخصيته محيرة، فهو كمعظم الآباء متسلط وكلمته هي النافذة في البيت، وكأي رجل يتخذ قراراً فتظنه لا يعدل

Twitter: @ketab_n

عنه ثم يباغتك بنقيضه في وقت لاحق، تراه مسترخياً وساخراً تارة، وغاضباً لأتفه الأسباب تارة أخرى، مزاجياً كان لكنه ليس متعصباً، يسخر من كل شيء ويضحك على كل شيء ويزوغ من المطبات التي تفاجؤه ببساطة من يتنفس الهواء أو يشرب الماء، ولكي لا يشتتني ويعيدني إلى تلك العفريتة التي كانت تسكنني فسأمضي معه إلى أيامه الكئيبة، تلك التي ألقت به على ضفاف الأحزان بعد وفاة بهيجة، فقد امتنع أول الأمر عن تناول الطعام وسقط مريضاً، ثم صام عن الكلام ولم يستوعب موتها المفاجيء مع ولده الثاني، لقد زلّت قدمها وتدحرجت من أعلى الدرج، كانت في شهرها السادس، مازلت أتذكّر كيف سهمت عيناها وابيضتا وعلت وجهها صفرة بعد سقوطها، أسرع أبي لنقلها إلى المستشفى فوصلت إلى هناك بلا أنفاس تخوض في بحر من الدماء ويخرج الطفل الذكر ميتاً.. لم يعد لأبي ذاك الجسد الضخم بل امتصته الأحزان قطرة قطرة، حاولت أمي بكل طاقتها وصبرها أن تنقذه من الحالة التي وصل إليها، بينما جدتي كانت تحثه على تجاوز المحنة والزواج مرة ثالثة كأن أمي لا وجود لها في حياته، لكنه لايرد، لا على كلمات أمي المواسية ولا على كلمات جدتي المحرضة، كان يخوض في بحر من الظلمات لا يدركه أحد سواه، حتى أصيب بأزمة قلبية مات على أثرها بعد أن رفض نقله إلى المستشفى كأنه عرف ما سيحدث له وتواطأ مع ملك الموت ليلتقي بحبيبته بعد ثلاثة أشهر من فراقها.. وتظل الصورة الأوضح منه في مخيلتي هي حين أسقطني على البلاط وداس على رأسي بحذائه الجلدي الخشن ثم سحلني ليرميني إلى السرداب.

سيعود أبي في صفحات لاحقة كلما اقتضت الضرورة، أما جدتي مسعودة فقد احتضنت محمود كأنها تحتضن قطعة ماس تخشى عليها من الفقدان، زادت من دلاله كتعويض عن ابنها الذي مات قهراً، وبعد أن كانت صاحبة

Twitter: @ketab_n

نكتة ولسانها لا يتوقف عن الكلام ومجلسها لا يخلو من الضحك أصبحت قاب قوسين من الموت حزناً لولا فسحة الأمل التي وجدتها في محمود، هو وحده من يرى ابتسامتها التي تبخل بها علينا، تقص عليه الحكايات وتصمت حينما نقترب منها نحن الصغيرات بنات ابنها، وإذا ما تسللت إليه نملة ومشت على قدمه تتبعُ جدتي أسراب النمل وتقتلها بالنفط الأبيض.

ذات نهار، بعد أن نسينا رنة ضحكاتها لفترة طويلة فاجأتنا وزغردت، هرعنا، هند وصابرين وأنا، تتبعنا أمي التي ظنت أن جدتي جُنّت، وتبيّن في مابعد أن الأمر ليس كذلك، كان محمود في حضنها يمسك ببرتقالة وهي تمطره بالقبلات، وقبل أن تسألها أمي عما حدث زغردت ثانية، وأشارت بيدها أن نقترب، ما الذي حدث؟ كررت أمي السؤال فردّت جدتي بفرح غامر:

. محمود غافل (زاير محسن) وسرق من دكانه برتقالة.

انكمش وجه أمي وقالت لها بامتعاض:

- أنت تفسدين الولد وتشجعينه على السرقة.

هزت جدتي رأسها جذلاً وقالت:

- هذا ذكاء من ولد عمره ست سنوات ويراوغ رجلاً بعمر الستين.

أمي التي لم يعجبها ردّ جدتي صرخت بها:

- من الآن سيحجز له مقعداً في مدرسة الحرامية.

Twitter: @ketab_n

شقت ضحكة جدتي فضاء المكان وقالت متباهية:

- السجن للرجال.

وستعود جدتي مسعودة إلى أوراقي كلما اقتضت الضرورة أيضاً.

**

كنا نذهب إلى المدرسة مشياً على الأقدام فهي غير بعيدة عن بيتنا، وحينما نقلني أبي إلى مدرسة ثانية كانت أبعد قليلاً عن مدرستي الأولى، ما إن ينتهي الدوام حتى أقف عند الباب بانتظار أختيّ لنعود ثلاثتنا إلى البيت، ويصدف أن أجدهما قبلي، كانت أمي صارمة بوصاياها لأختيّ:

- لا تعودا من دون (ريام) لكي لا تُختطف، فتصيح جدتي:

- اسمها كفى.

لا تعيرها أمي اهتماماً بل تلتفت إلي لتقول مُحذرة:

. لا تكلمي الغرباء لأنهم سيخطفونك.

لم تسأل أختاي عن الذي سيخطفني، أنا التي اسأل فتجيب أمي:

- غرباء يأتون من قلب السماء البعيدة.

أعود وأسأل:

- لماذا يفعلون ذلك؟

Twitter: @ketab_n

تعرف أمي أنني لجوجة ويمكنني أن أسألها عشرة أسئلة في الدقيقة الواحدة عن مواضيع لا تخطر ببالها، فترد بعصبية:

- عندما يخطفونك ستعرفين.

مرة سألتها:

- لماذا تنام الزوجات مع الأزواج؟

- فتحت عينيها دهشة وبعد قليل من الصمت قالت:

- لكي ينجبن أطفالاً.

وعندما هممت بسؤال آخر حول كيفية الإنجاب قالت بنفاد صبر:

- ستعرفين ذلك عندما تكبرين أما الآن فاذهبي مع أخواتك للّعب في الحديقة.

شكوت ذات مرة لأمي من هند وقلت بأنها تجرني من ضفائري، فقالت لابد أنك تثيرينها، وانتبهنا بأن هند تقف في هذه اللحظة عند الباب فصرخت: كذابة، ثم التفتت إلى أمي شاكية: هي التي تجر ضفائري، فقلت لها: أنت الكذابة، ولا أدري بعد ذلك أينا هجمت على الأخرى، كنتُ صادقة في ما أقول لكن أمي صدقتها وكذّبتني لكثرة ما كنت أكذب في ذلك الوقت، وحدها هند من تفتعل المشاكل معي منذ الصغر، إلا أنها خففت من غلوائها شيئاً فشيئاً لكن بذرة الاختلاف معي ظلت في أعماقها ونبتت من جديد بعد

Twitter: @ketab_n

سنوات طويلة من تلك الطفولة لتضع حداً للعلاقة بيني وبينها، أما صابرين فقد كانت النسمة الرقيقة بيننا.

Twitter: @ketab_n

بعد أسبوعين عادت فاطمة، جاءت مبكرة تحمل معها (خبز عروك) قالت بأنها لم تفطر، وسألتني: ها، كيف حال الكتابة معك، هل نجح الأمر؟ قلت لها أظن ذلك وقمت بإعداد الشاي، شربنا وأكلنا خبز العروك اللذيذ، ثم مضينا إلى غرفة الخياطة كأننا غبنا عنها شهراً، انهمكنا في القص والدرز والتطريز لمدة تقارب الثلاث ساعات لم نتبادل الكثير من الكلام خلالها، سألتني فاطمة ثانية عن روايتي فقلت لها أظن أن المحاولة ناجحة لحد الآن، واستأذنتها بأن ثمة شيئاً يجب أن أدونه قبل أن أنساه، تركتها ومضيت إلى غرفتي، ويبدو أن الكتابة أخذتني فلم أنتبه للوقت إلا بعد أن طرقت فاطمة الباب ورأتني منهمكة بالكتابة فقالت:

- الغداء جاهز هل آكل وحدي؟

أخذت نفساً عميقاً كأن الذكريات التي أكتبها قد أطبقت على صدري حين عادت على شكل كلمات مرصوفة، تركت أوراقي على الطاولة ومضيت مع فاطمة إلى المطبخ، رائحة الرز بالكركم مع مرقة الباميا الشهية تذكرني بطبخ أمي، لكنني أكلت على عجل ومن دون شهية ، فاطمة تريد تفسيراً للحالة التي أصابتني فأكرر ما قلته لها بشأن الكتابة وأضيف عليه:

- أريد أن أكتب قصة حياتي قبل أن أغادر هذه الدنيا.

وجهها يبحث عن إيضاح فأضيف مازحة:

- ربما ينجح الأمر وأصبح كاتبة، لا تخافي سأعود إلى الخياطة لأنها تسري في دمي وهي الذكرى الوحيدة التي لا أريد لها أن تموت بعد موت أمي.. قلت ذلك وأنا غير متأكدة مما أقول.

Twitter: @ketab_n

ثم نعود بعد الغداء إلى غرفة الخياطة فيستغرقنا العمل حتى الساعة الخامسة عندها يكون دوام فاطمة قد انتهى فتقول:

- عليّ أن أعود إلى البيت، الطرق إذا اظلمت تخيفني.

أقوم من وراء الماكنة، أوصلها إلى الباب الخارجي وأقول لها:

- لماذا لا تعيشين معي فالبيت كما ترين واسع، فترد:

- سأفكر بالأمر بعد التشاور مع العائلة.

أغلق الباب وراءها وأعود إلى أوراقي.

**

صالة وخمس غرف في بيتنا القديم ذي الطابقين والشرفة العريضة المطلة على الشارع، البيت الذي ورثه أبي عن جدي والذي تغربت عنه ثم عدت إليه، حديقته الأمامية واسعة تربض فيها أشجار البرتقال والنارنج والتوت، وفيها أيضاً شجرة سيسبان، ونخلة غرستها أمي عندما كنت طفلة تتوسط الحديقة كأنها بالنسبة لبقية الأشجار فص حجر كريم في قلادة، وصف من شجيرات الآس على طول الممر الواصل بين الباب الخارجي ومدخل البيت وبامتدادها شجيرات الجوري والقرنفل..في الطابق العلوي تقع (غرفة البنات) كما أطلق عليها أبي ثم عدلت التسمية أمي وأطلقت عليها (غرفة الفراشات)، والغرف الأربع المتبقية تقع في الطابق الأسفل، حالما نجتاز الحديقة والممر ونعبر إلى الداخل سنرى الصالة إلى اليمين تقابلها غرفة جدتي بسرير من الحديد وصندوق كبير من خشب الصاج لا ندري ماذا

Twitter: @ketab_n

تحشر فيه فهي دائمة التستر على محتوياته وتمنعنا من الاقتراب منه، غزوته أكثر من مرة في طفولتي لأعرف ما بداخله وخابت غزواتي.. ولأبي الغرفة الأوسع بنافذتين، الأولى تملأ الجدار وتشرف على الحديقة والثانية صغيرة تطل على الممر، بسرير من خشب الأبنوس وخزانة داخل الحائط يصفط أبي في أدراجها ملابسه الداخلية ويعلق على قضبانها الستر والقمصان والأربطة والبنطلونات والأحزمة، وفي الغرفة جرس معلق بحبل من السقف ينزل حتى النافذة الداخلية للغرفة يشبه جرس المدرسة الذي تستخدمه المعاونة عند بداية الدوام وبين بداية ونهاية كل حصة، سأعرف بعد موت أبي بسنوات السر الكامن وراء احتفاظ أبي بهذا الجرس طيلة حياته، غرفتا أمي وضرتها بهيجة تتجاوران بامتداد غرفة أبي ويطل شباكهما على حديقة خلفية صغيرة حرصت أمي على أن تزرع فيها النعناع والبقدونس والرشاد، لم تكن بهيجة تسكن معنا أول الأمر، فحينما قرر أبي الزواج ثانية استأجر لها بيتاً مستقلاً في الوزيرية ليس ببعيد عن بيتنا، ولم يفكر بالجمع بين الزوجتين إلا بعد أن مرّ بظروف مادية صعبة، وأتذكر أن أمي عندما علمت بأن ضرتها ستعيش معنا صامت عن الكلام لفترة طويلة وإذا اضطرت إليه فإنها تختصر بأقل الكلمات وبملامح متوترة تحاول قدر ما تستطيع إخفاءها لئلا نكتشف حجم معاناتها، لكنها شيئاً فشيئاً تقبّلت الواقع ليس بسبب تمسكها بالعلاقة مع أبي ولكن من أجلنا نحن، بناتها الثلاث ولأن ضرتها كانت مهادنة لم تسع إلى ما يفاقم توترات أمي.

**

عندما وسوس شيء ما في صدري واختبأت تحت السرير دُهشت لما رأيته، وتكرر الأمر كل ليلة أو كل ما سنحت لي الفرصة، كاتمة ما أراه عن هند

Twitter: @ketab_n

وصابرين لئلا تشيان بي، لكنني رحت أحكي لرفيقاتي في المدرسة عن كل ما يحدث على سرير أبي، أمي تخلع ثيابها وترتدي قميصاً شفافاً لا يكاد يغطي جسدها، يرتفع حتى منتصف الساقين، مفتوح من الأمام ومن دون أكمام، تصعد صامتة إلى السرير الذي يتمدد عليه أبي، أما بهيجة فإنها تتعرى تماماً دون خجل، وتتراقص قبل أن تصعد إلى السرير، وفي كل مرة تقول له: خليني أشوف قوتك أيها الأسد... وأنا صامتة أكتم أنفاسي وأزحف على مهل لأرى كيف يلتحم الجسدان، مذهولةً كنت مما أرى، متسائلة: كيف لامرأة مثل أمي الخجولة أن تتعرى ولماذا يضيع جسدها تحت جسد أبي الضخم وكيف لا تختنق؟ أما بهيجة المربربة ابنة العشرين فقد كانت تأتي بأفعال عجيبة وتضحك وتقول كلاماً لا أفهمه وتتأوّه وتصرخ فأفزع معتقدةً أن أبي سيقتلها، ثم، تنطلق ضحكاتها ثانية وتتفوّه بكلام فاحش وتشتم أبي وأبي لا يرد شتيمتها.. يا للعجب، أين كرامة أبي التي يتشدق بها دائماً؟

ذات مرة تشاجر أبي مع رجل غريب رآه يحوم قريباً من بيتنا وهدده أن يسلمه إلى الشرطة إذا رآه ثانية، فابتعد الرجل بعد أن شتم أبي، وما كان من أبي إلا اللحاق به وطرحه أرضاً وراح يضربه ويدوس على رأسه والرجل يصرخ، فهرع جارلنا كان على مقربة من المكان وأنقذ الرجل الغريب من بين يدي أبي وقدميه، ولّى الرجل هارباً وقال أبي لجارنا: لم أستطع كظم غيظي، أنا رجل ذو كرامة وكرامتي لا تسمح لأحد أن يشتمني... فأين كرامة أبي وبهيجة تمعن في شتمه؟

لم يغفر لي أبي فعلتي، ولم يكتفِ بضربي وإيقاعي أرضاً، بل هددني بالسرداب، وكان كل ليلة يتأكد من أنني نائمة في الفراش قبل أن يمضي إلى غرفته، وقد أطلق عليّ (العفريتة) بعد وقفته المخجلة أمام المديرة، وأصبح

Twitter: @ketab_n

كل من في البيت يدعوني بالعفريتة إذا قمت بأي عمل لا يرضيهم، وظل أبي يخزرني بعدم ارتياح فأنزوي في (غرفة البنات) لئلا يمضي بي إلى السرداب.

بعد سرقته البرتقالة وزغاريد جدتي مسعودة، صار محمود يسرق من البيت، يسرق ألعابنا، أقلامنا، وحاجاتنا الخاصة، وبالرغم من أننا نضبطه بالجرم المشهود إلا أنه يُنكر الأمر أمام الجميع، وأحياناً يصرخ لكي يُسمع جدتي فتهرع وتوبخنا، وحينما يشتعل البيت بالمشاكل بين أمي وجدتي يصل الأمر بأمي إلى تهديد الجدة بتركها في البيت، وهذا يعني أن جدتي ستفقد من يخدمها بعد وفاة أبي، عندها تلين قليلاً، لكن لا يلبث الجو بينهما أن يتكهرب مرات ومرات، وتتعدى سرقات محمود إلى أطفال الجيران فحين يلعب الدعبل ويخسر يفتعل الشجار، يخمش وجه هذا الطفل وينهش ذاك ويعود بالدعبل المسروق في جيبه ليحتمي بجدتي مسعودة.

ربما نضجت قبل الأوان وإلا كيف أفسر الأمر عندما تفجرت عواطفي وأنا ابنة الثالثة عشرة وفُتنتُ بريحان، بينما لم تفتتن أختاي هند وصابرين بأحد في ذلك الوقت وهما تكبراني؟ وريحان هذا شاب في السادسة عشرة من العمر، بهي الطلعة ذو عينين سوداوين واسعتين وشخصيته آسرة، يجيء إلى حيّنا من الحي المجاور الملاصق لنهر دجلة، الحي الأكثر فقراً،غالباً ما أراه يخترق شارعنا هو وأصدقاؤه في طريقه إلى المدرسة أو عائداً منها، أو يحمل كتاباً ويمضي وحيداً باتجاه المقبرة الانكليزية، أما بيتنا فيقع في الحي القديم المبنية أغلب بيوته منذ زمن الاحتلال الانكليزي، بيوت واسعة من طابقين على الأغلب وبعضها يحمل تاريخ تأسيسها بحروف بارزة منقوشة على الواجهة العليا للبيت مثلما هو الحال مع بيتنا، وكنت كلما رأيت ريحان تمنيت الزواج منه، لطالما حلمت بسرير رحب يضمنا وأفعل معه ما كانت

Twitter: @ketab_n

تفعله بهيجة مع أبي.. وقعت في غرام ريحان مثلما وقعت في غرامه بنات كثيرات متمنيات ما تمنيته، وكان هو يغازل الفتيات جميعهن بعبارات أظنه حفظها من الأفلام العربية، لم أكن أشعر بالغيرة منهن باستثناء عزيزة الشقراء ذات العيون الخضر التي تتغنج وتتمايل وتتضاحك وتكلمه دون حرج، وعزيزة هذه يتيمة الأم منذ كانت في الخامسة من العمر، تزوج أبوها من امرأة داكنة البشرة فأنجبت منه بنتين بذات البشرة قبل أن يموت، وكانت زوجة الأب تشعر بالغيرة من الطفلة الشقراء لئلا تكون سبباً في تعثر نصيب ابنتيها لذلك كانت قاسية معها بوجود أب ضعيف الشخصية، ولم تكن عزيزة موفقة في دراستها فكانت تأخذ السنة بسنتين لكنها حالمة كبيرة ولديها قناعة بأنها ستصبح ثرية ذات يوم وستنتقم من زوجة أبيها بطريقتها الخاصة.

أسمعني ريحان ذات يوم كلاماً بطعم الشهد جعلني لا أنام، ومع أنني كنت أشعر بسعادة لا توصف إلا أنني تعلمت أيضاً من الأفلام والمسلسلات العربية التي كانت جدتي مسعودة تتسمر أمامها ما جعلني أسوق الدلال عليه وأقول له: كم واحدة قلت لها هذا الكلام؟ وكان رده: هذا كلام مخصوص لا أقوله إلا لكِ فسألته والغيرة تأكلني: ولا حتى لعزيزة؟ ضحك وقال: أنا لا أحب الشقراوات ذوات العيون الملونة، وبعد أن توطدت علاقتي به صرنا نلتقي سراً، أحياناً نعبر جسر الصرافية وغالباً ما نمضي إلى المقبرة الانكليزية، ولأن بيتنا قريب من تلك المقبرة فقد كنت أخشى أن يرانا أحد لذلك كانت أخته نجية تقوم بحراسة الطريق كما سيرد في هذه الأوراق لاحقاً، ومن ريحان تعلمت أشياء كثيرة، وكثيراً ما كان يحكي لي عن الأهوار موطن أجداده، وعن تلك الطيور الغريبة والعجيبة التي تهاجر من أقاصي العالم وتأتي إلى الأهوار، وعن القرى الطافية على الماء، وبعد جولات

Twitter: @ketab_n

وجولات قال لي أخيراً: سأتزوجك يوماً ما ونمضي إلى هناك، وعندما ضحكت كرر الكلام وهو يغرز عينيه بعيني: سأتزوجك يا بنت المعيدي.

لا ينحدر أبي ولا أمي من المعدان، لكن ريحان كان يقصد مغازلتي وتشبيهي بتلك المعيدية التي نراها في الصور، والتي تقول عنها الحكايات بأنها كانت خارقة الجمال وتنحدر من إحدى قرى هور الحويزة في مدينة العمارة، وكان أهلها من المعدان يبيعون القيمر ويصنعون الحصران والبواري ويربون الجاموس، وقد وقع في غرامها أحد الضباط الإنكليز عندما كانت البلاد تحت الانتداب البريطاني بداية القرن الماضي، فأشهر إسلامه وتزوجها، ولما انتهت مدة خدمته العسكرية في بلادنا أخذها وسافر إلى لندن وجاء برسام كبير ليرسم صورتها ويرسلها إلى أهلها، وما تزال الأجيال تتناقل الصورة المستنسخة في البيوت والمقاهي كما الموناليزا.

عندما عدتُ إلى البيت في ذلك النهار الذي قال لي فيه ريحان بانه سيتزوجني كنت أشعر كما لو أن جناحين نبتا على كتفيّ وحلّقت إلى السماوات، وأحسست بسعادة لم أحس بها من قبل، ولم أستطع كتمان سري فبحتُ لهند وصابرين، ولا أشك أبداً بأن هند هي التي أفشت السر لأمي التي شهقت وصرخت بي: أتقيمين علاقة مع ابن المعيدي وأنت في هذه السن الصغيرة؟ دُهشت والتبس عليّ الأمر، هل هناك ابن معيدي مثل بنت المعيدي الفاتنة؟ أوضحت أمي بأنها تقصد أن ريحان من سلالة المعدان، ألم تصنع أمه القيمر ويربي أهله الجاموس؟ في ذلك الوقت لم أكن أعرف أن المعدان اختصوا بصناعة القيمر وتربية الجاموس فقلت لأمي لأناكدها: وماذا في ذلك، هل هناك أطيب من القيمر؟ ألسنا نتهافت على شرائه من أم ريحان؟ لطمت أمي صدرها وصرخت بي دون أن تنتبه لدخول خالي إبراهيم: ماذا

Twitter: @ketab_n

فعل معك ريحان ابن المعيدي، هل سحرك يابنت؟ وحين انتبهتْ تلعثمت وحاولت تغيير دفة الكلام إلا أنها فشلت، فقال لها خالي إبراهيم بغضب: سمِعتك، صوتك واصل لسابع جار.. صمتت أمي فتحرك خالي وأمسك بضفيرتي وراح يقررني وأنا أقسم كذباً بأن ريحان لم يلمسني، فقط قال بانه سيتزوجني، سحب يده من ضفيرتي وكوّر قبضته كما لو أنه يريد أن يلكمني فوضعتُ يديّ على وجهي، لكنه سحب يده والغضب يتأجج على وجهه ثم تركنا وهو يكز على أسنانه ويقول: ما بقي الا ابن المعيدي يتحرش ببناتنا، وخرج مهرولاً باتجاه بيت أم ريحان، وطبعاً لم أقل لأمي ولا لخالي عن علاقتي بريحان ولا عما حدث قبل أيام حينما كنت على ضفاف النهر، فقد انبثق ريحان مثل جني من قاع المياه وأفزعني فأردت الهرب لكنه خرج نصف عارٍ وقال ضاحكاً: لا تخافي، كنت أسبح على مقربة منك فغطست في الماء ووصلتك، نشف جسده بفانيلته وارتدى دشداشته وقال لي: أنا ابن الماء وبيوت القصب، هل سمعت ببيوت عائمة فوق الماء؟ ثم مشينا على ضفاف النهر الرملية وواصل كلامه: إنها بيوت أعمامي في الجبايش، عندما اتزوجك سنمضي إلى هناك وأريك حقول الرز والطيور الملونة التي تهاجر من بلدان بعيدة وتأتي إلى الأهوار باحثة عن الدفء، سنركب المشاحيف ونتجول بين القصب والبردي، وتتذوقين خبز(السيّاح) الحياة هناك جنة على الأرض والمرأة أكثر حرية من نساء المدن.

ولم أقل أيضاً بأنه قبل ذلك أركبني ظهر إحدى الجاموسات وكانت تعوم في النهر وكدت أصرخ لأنني خشيت من السقوط أثناء ما كانت الجاموسة تغطس في النهر فأنزلني وقال: ستتعلمين ركوب الجواميس في الجبايش، وأخفيت أيضاً انني وريحان دخلنا المقبرة الانكليزية أكثر من مرة وصارت موعداً ثابتاً للّقاء بيننا.. وبرغم أن هذه المقبرة قريبة من بيتنا إلا أنني لم

Twitter: @ketab_n

أدخلها يوماً إلا مع ريحان، وكم دُهشت حين تجولت بين قبورها المنظمة التي لا تشبه قبور موتانا، وريحان يقرأ لي أسماء الجنود الذين قتلوا في الحرب العالمية الأولى ودفنوا في هذه المقبرة، أسماء غريبة على مسامعي مكتوبة بالانكليزية التي يجيدها ريحان، وجلسنا تحت فيء أشجارها وارفة الظلال، وأحياناً يأتي ريحان ومعه كتاب في التاريخ المعاصر ويقرأ لي عن شخصيات تاريخية أثّرت في الحياة البغدادية وفي عموم العراق.وكم مشينا على عشبها الناعم الطري، ومن ريحان سمعت للمرة الأولى باسم المس بيل، وقفنا بالقرب من قبرها وقال ريحان هذا قبر المس بيل عالمة الآثار البريطانية والسياسية المشهورة التي عاشت في العراق وكان لها دور كبير في سياسته ويقال بأنها هي من اختارت الأمير فيصل الأول ليكون ملكاً على العراق، وكثيراً ما شاهدها الناس وهي على صهوة جوادها ويسميها البغداديون في ذلك الوقت بالخاتون، والخاتون تعني باللغة التركية المرأة الشريفة عالية المقام، وكانت تتنقل في قرى العراق وتقوم بحملة تلقيح الأطفال ضد مرض الجدري، وصار قبر المس بيل بعد ذلك مكاناً مفضلاً للمواعيد بيني وبين ريحان، ثم رأيت قبر الجنرال ستانلي مود قائد الحملة البريطانية على العراق في بداية القرن العشرين، وله تمثال في كرخ بغداد أزالته الجماهير الغاضبة بعد ثورة تموز في العام ١٩٥٨ كدلالة لإزالة عصر الاستعمار، وأخبرني ريحان أن الجنرال مود مات بمرض الكوليرا أما المس بيل فقد ماتت بتناول جرعة كبيرة من الأدوية ويقال بأنها انتحرت.. وكنا حين نتواعد في المقبرة تكون نجية اخت ريحان التي تصغره بأربع سنوات جالسة على السياج الواطيء للمقبرة بالقرب من مدخلها تراقب الطريق، فإذا رأت أحداً من الذين يعرفوننا تنزل من على السياج إلى داخل المقبرة وتصيح بأعلى صوتها: ريحان جاءنا ضيوف.. عندها نهرب من السياج البعيد.. وفي أحد اللقاءات تلك أخبرني ريحان بانه يعتزم إذا ما دخل الجامعة أن يدرس تاريخ العراق

Twitter: @ketab_n

في تلك الفترة.. هل كان ذلك سبباً كامناً في أعماقي لكي أتخصص بعد سنوات بدراسة التاريخ؟

كل ذلك أخفيته باصطناع البراءة التي لم أمتلكها أبداً، وحينما عاد خالي قال: كسرت له ذراعه أمام أمه وهددته إذا اقترب منك سأكسر له أنفه، إذا كان الموت قد غيّب أباكِ فتذكري أنني موجود، كم شعرت بالحقد على هند التي كانت من وراء كتف أمي ترمي إليّ نظرات ساخرة، وكم كرهت خالي وتمنيت من الله أن يكسر له يده، لطالما سمعت من جدتي مسعودة أن الدعاء إلى الله وقت المغرب مستجاب، فهرعت إلى السطح في ذلك الوقت، كانت الشمس للتو تغطس وراء الأفق، فردتُ يديّ ورفعتهما إلى السماء وتمنيت أن يكسر الله يد خالي.. ثم عدّلتُ الدعاء ورجوت الله أن يبتر يده بتراً.

لم أر ريحان بعد ذلك سوى مرة واحدة رتبتها نجية بعد أسبوعين على ما فعله خالي به، وفي تلك المرة التي عبرنا فيها جسر الصرافية بشكل منفرد لكي لا يرانا أحد معاً من الذين يعرفون أهلي، جلسنا على شاطىء النهر من جهة الكرخ، كانت يد ريحان ملفوفة بالشاش الأبيض، قال بأنها ليست مكسورة بل حدثت بها رضوض لأن خالي دفعه فسقط أرضاً والتوت يده، وسألته عن المعدان فقال بألم: لا أدري لماذا يقللون من شأنهم مع أنهم منبع الحضارة وهم قوم مسالمون لم تلوثهم المدن حتى وإن عاشوا فيها، وراح يحكي عن الأصل مبتعداً عما آل إليه الوضع بعد آلاف السنين عندما دخلت أقوام أخرى من الجزيرة العربية واستوطنت بجوار ممالكهم السالفة وتسيدت الحياة.. كنا في بداية العطلة الصيفية فأخبرني بأنه سيزور أعمامه هناك ويعود، وأنه لن ينساني أبداً وكرر عليَ بأنه سيتزوجني على عناد خالي

Twitter: @ketab_n

الذي لا يرى أكثر من موطىء قدمه على الأرض، وشعرت بأنه سعيد لأنه سيمضي إلى الأهوار في هذا الوقت بالذات حيث يأتي أكثر من مليوني طير من أقاصي الدنيا ويتعايش مع الطيور الأصلية، وراح يحكي عن ألوان الطيور وعاداتها وعدّد لي بعض أسمائها، ومنها البجع والبط الصيني والغاق والكوشرة والدبش والخضيري والنقوط والمنتشي والسرندة والسنونو واللقلق والشاهين والصقر، وقال عن الخضيري بأنه طير ذكي جداً يعرف كيف يراوغ الصياد ويفلت منه فلا يقع بسهولة في شباك الصيد، وإذا وقع فإن الصياد يذبحه سريعاً لكي لا يموت، لأن الخضيري دون بقية الطيور يشعر بالحزن العميق ويموت قهراً إذا وقع فريسة الصيد.

كان ذلك آخر لقاء بيني وبين ريحان، ثم اختفى ولم أعرف عنه أي شيء، حتى نجية آثرت الابتعاد عني وقالت بأن امها أوصتها أن تبتعد عن المشاكل، وأخيراً عندما أمسكت بيدها بقوة ولم أدعها تفلت مني قالت بأن عمها الذي يسكن في الأهوار أشار عليه بالبقاء في قريته في الجبايش، تلك القرية التي قال لي ريحان عنها ذات مرة بأنها قرية الماء والأسماك والطيور ومشاتل الرز وبيوتها مبنية من القصب والبردي وعائمة فوق سطح الماء، ولعله الآن يصنع الحصران والبواري ويربي الجاموس مهنة أجداده.

أمي من جانبها حرّمت شراء القيمر من أمه، وضيّقت علي الخروج إلا للمدرسة، ودائماً مع هند وصابرين وإذا كان لابد من الخروج لأغراض أخرى أكون برفقة أمي، إلا أنني أجد دائماً طريقة ما للخروج لعلي أرى ريحان أو أسمع خبراً عنه، فربما يكون قد عاد سراً ودار في الطرقات بحثاً عني، وكم من مرة دخلت المقبرة الإنكليزية وانتظرته عند قبر المس بيل، لكنني لم أره أبداً، وظل ريحان مستقراً في رأسي لفترة طويلة، أتذكره كلما تذوقت القيمر

Twitter: @ketab_n

أو أكلت الريحان ذا الرائحة الشذية أو استمعت إلى الأغنية المعروفة (يا نبعة الريحان)، وبمرور السنين اضمحلت صورته وبهتت ملامحه، ثم، لم يعد له وجود في رأسي إلا بشكل خاطف يمر مثل طيف سريع لشاب جميل كان اسمه ريحان، واعتبرت علاقتي به نوعاً من أنواع الطيش لصبية لم يتكور نهداها بعد.

عندما بلغ محمود الرابعة عشرة من العمر وكنا ما نزال نعيش في بيتنا القديم مع جدتي مسعودة، دخل سجن الإصلاحية لمدة عام بسبب سرقته دراجة من محل عبود القريب من البيت، لم تزره أمي أبداً لكن جدتي مسعودة كانت كل شهر تعد له الطعام والحلوى وتذهب من الصباح الباكر لرؤيته، وعندما انتهت مدة محكوميته خرج من الإصلاحية ترافقه فرقة موسيقة أجّرتها جدتي لتأتي به إلى البيت كما لو أنه تخرج من الجامعة، لم يواصل محمود دراسته بل عمل في مهن رخيصة، بائع سجائر على أبواب السينما، صانع في ورشة نجارة، عامل في مصنع للأحذية، ثم عمل مع تاجر في مزاد للسجاد في شارع النهر، ومن هذا المزاد إلى السجن مباشرة، فقد سرق مبلغاً كبيراً من صاحب المحل انتهى به إلى خمس سنوات في سجن الباب المعظم، وبعد هذه الفعلة اشتعلت المعارك بين أمي وجدتي التي ماتزال تكرر عبارة السجن للرجال، واقتنعت أمي بأن البقاء مع جدتي لا يناسبنا خصوصاً وأننا شابات تتمنى لنا في المستقبل زيجات ناجحة من شأن محمود أن يُفسدها بأفعاله الشنيعة، وأقسمت أن تغادر البيت وتترك جدتي متشفية بها: السجن للرجال ها؟ بناتي لا يشرفهن مثل هذا الأخ الحرامي.

استأجرت أمي بيتاً في السيدية على أطراف بغداد وعلى مسافة ليست بعيدة من بيت عمي نعمان وهو الأخ غير الشقيق لأبي برغم أنها لا تكن له وداً،

Twitter: @ketab_n

وقد كانت العلاقة بين أبي وعمي الأكبر سناً منه فاترة لأسباب أجهلها في ذلك الوقت لكن علمت فيما بعد من أمي أن جدتي مسعودة هي التي وسّعت وعمّقت الهوّة بينهما لمجرد أن عمي نعمان هو ابن من امرأة ثانية قبل أن تتزوج جدتي من جدي .. لكن أمي قالت: مهما يكن فإن العم مثل الأب ونحن نساء بلا ظلال تحمينا في هذا الزمن الصعب وربما سنحتاج إليه ولو شكلياً.

**

Twitter: @ketab_n

ركضت الأيام بسرعة كأنها عجلات آلة هادرة لا تتوقف، أمي تعمل طيلة ساعات النهار بالخياطة والتطريز، خصصت غرفة واسعة عزلتها عن بقية الغرف، لها باب قريب من الباب الخارجي للبيت، واشترت ماكنة خياطة إضافية حديثة الطراز نوع براذر مُبقية على الماكنة القديمة (أم الرِجل) تتدرب عليها هند وصابرين أو يصبح العمل عليها لابد منه عندما تنقطع الكهرباء.. التطريز على القماش استهوى صابرين فبرعت فيه، أما هند فقد أحبت صنع الأحزمة والأشرطة المشغولة بالخرز وعمل البُلك لتزيين صدور الفساتين أو تطريز الفراشات التي ترسمها أمي، ولازمتها أثناء العمل عادة سماع نجاة الصغيرة، تدس الشريط في المسجل وتروح أصابعها تعمل بنشاط، قالت لها أمي مرة : ألا تملين؟ لقد حفظنا أغاني نجاة كلها، أسمعينا صوتاً آخر، أم كلثوم مثلاً، فكان جواب هند: صوت نجاة فيه دفء وعذوبة بينما صوت أم كلثوم ذكوري وفيه صراخ أكثر من اللازم، وشعرتُ كأن هند اقترفت إثماً فصرختُ بها: كيف تقولين ذلك عن كوكب الشرق؟ فتجاهلتني، بينما لم تعلق أمي واكتفت بالنظر مستنكرة رأي هند وضاغطة على العجلة لتهدر بقوة كأن أمي تريد أن تخفي صوت نجاة الصغيرة رداً على ما سمعته من هند بحق السيدة.. ولا تخلو جلساتنا من طرافة، فعندما ينتهي شريط نجاة الصغيرة تسألنا صابرين: هل سمعتن آخر نكتة؟ ويأتي الجواب جماعياً: لا، فتقول: امرأة طلبت من زوجها أن يذهب إلى السوق ويشتري كيلو باميا لكي تطبخ مرقة بامية مع الرز، الزوج وأثناء ما كان يعبر الشارع دهسته سيارة فمات فوراً، الجارة جاءت لتواسي الزوجة المنكوبة فسألتها: كيف مات أبو الجهال؟ ردت الزوجة: راح يشتري باميا فدهسته سيارة مسرعة، سألت الجارة ثانية: وماذا ستفعلين؟ قالت الزوجة: أمري لله سأطبخ فاصوليا.. تسبقنا صابرين إلى الضحك فنضحك معها بأصوات عالية، ثم تسألنا: ما هو الشيء الذي له رأسان في اتجاهين مختلفين من

Twitter: @ketab_n

جسده وليس له وجه ولا أطراف؟ ونروح نبحث في زوايا رؤوسنا علّنا نعثر على الإجابة وحين نعجز نطلب منها أن تجيبنا، لكنها تماطل وتقول إذا لم نتوصل إلى الإجابة قبل استراحة الغداء فستعلن عن ذلك الشيء الذي حيرنا فعلاً، وتقول لها أمي لا تشغلينا بحزوراتك قولي وفضّيها، فتضحك ونتعلق بشفتيها ثم تقول: أنا أيضاً لا أعرفه، وتقهقه عالياً، وقبل أن نأخذ استراحة تدندن أمي بصوت خفيض يضيع مع دوران العجلة، فننصت إليها ونطالبها بالغناء بصوت أعلى فترفع قدمها عن العجلة وتُسمعنا، دائماً تختار مقاطع من أغاني عفيفة اسكندر، تلك الأغاني التي ساعدت أمي للرد على أبي الذي تزوجته بعد قصة حب معروفة بين الأقارب لم يحفظ لها أبي ديمومة استمرارها، وأمي كثيرة الشبه بعفيفة اسكندر أيام زهوها، بيضاء طويلة القامة صافية البشرة، ربما لهذا السبب عشقت أغاني عفيفة اسكندر وظلت تردد أغانيها من حين لآخر طيلة السنوات التي عشتها معها..صوت أمي شجي وحنون،وحينما تغني تخرج الكلمات من أعماقها كما لو أنها تعيد أبي إلى الحياة وتعاتبه، مثلما كانت تفعل عندما يطفح الكيل بها وترد على إهماله بالغناء دون أن تلتفت إليه كما لو أنها تغني لنفسها في غرفة موصدة، وأبي من ناحيته يرد بطريقته الخاصة، كل كلمة تخرج من بين شفاه أمي تعيدني إلي تلك المماحكات بينهما التي تبدؤها أمي بالغناء:

صدّكت بيك وأمّنت عندك دليلي وبيه خنت

سلوتك بالشدة جنت تتسلى هسه بليّاي

أوف شلون بغرامك

Twitter: @ketab_n

يفهم أبي أنه المقصود فيضحك، وعندما تعرف أمي بأن رسالتها قد وصلت فإنها تكمل الغناء:

كسره اكسرتني بلا جبر واسكيتني مر الصبر

بيا وجه باجر تعتذر لله بافعالك هاي

أوف شلون بغرامك

ابتسامات أبي تتواصل وأحياناً يقهقه، أو يقول لها: كان يجب أن تصبحي مطربة، ربما ستعتزل عفيفة اسكندر وتصبحين أنتِ أيقونة بغداد.

**

قبل أن تفتتح أمي محلها في شارع النهر كانت تجمع المُنتج كل شهر أو شهرين وتبيعه للسيد مختار الذيب بعد أن كانت توزعه على عدد من المحال التجارية، لم أكن قد رأيت السيد مختار الذيب من قبل، تقول أمي عنه إنه رجل صاحب ضمير يقدّر البضاعة الجيدة أفضل من بقية التجار.. مختار الذيب سيكون شخصية مهمة في أوراقي هذه بعد قصتي مع نجم الذيب.

حتى ذلك الوقت، قبل أن أرى نجم الذيب لم تكن مهنة الخياطة قد استهوتني، أجلس بالقرب من أمي وأختيّ فقط للتسلية، أسمع حكايات أمي التي عجزت عن إخضاعي لمهنتها التي تدر ذهباً كما تقول، إلا بعدما تحفزت حواسي وتفتحت على أول حب حقيقي لم أجد ما يوصلني إليه سوى مهنة أمي.. كنت دائماً أشعر بأنني ملكة غير متوجة وسيأتي من يضع التاج على رأسي ويتوجني على عرش قلبه ويسكنني فسيح جناته، أنام وإياه على سرير

Twitter: @ketab_n

عريض له مقابض من فضة وفرشته من القماش الناعم، تنزل عليه من السقف (نصف كُلّة) حريرية شفافة، ولا تنام تحته طفلة خارجة من بطون العفاريت.

كنت أقفز على السنين وتقفز معي أشياء غامضة تخرج من جسدي، فيما تمشي الحياة مع أمي وأختيّ ببطء وقناعة راسخة بأن يد القدر هي التي تسيّر كل شيء، وطيلة تلك السنوات لم نعرف ماذا حلّ بمحمود، بل لا يخطر على بالنا نحن البنات أن لنا أخاً يدعى محمود، فجدتي مسعودة المناكفة كانت قد ماتت بعد إيداعه السجن بشهور قليلة.. ثمة أحداث كثيرة سأعود إليها لاحقاً بشأن محمود، أما الآن فآن لي أن أتوقف عند أهم محطة من محطات أحلامي، وكيف تغير مسار حياتي حينما ظهر نجم الذيب في حياتي ووقعت في غرامه من النظرة الأولى.. كان يشبه رجلاً لطالما رسمته مخيلتي من مجموعة رجال صادفوني أو سمعت أو قرأت عنهم في بطون الكتب، شاب أسمر له جسد رياضي بشعر حالك السواد وعينين غامقتين وغامضتين، تحسبه يقول شيئاً لكنه يعني شيئاً آخر، وأنا أفتتن بهكذا غموض ولا أحبذ الرجال الواضحين المسطّحين، أرغب دائماً بالسير على الشوك لأصل إلى الثمرة ولا يهمني بعد ذلك أن تدمى قدماي ويداي، لذة أستشعرها وأنا أعيش الأرق والقلق وأعصر على الثمرة لتعطي أكلها، ولولا مرض صابرين لما التقيت بنجم، ولجرت حياتي مُجريات لا قبل لي بها، هكذا كنت أفكر حتى ذلك الوقت.

طلبت أمي أن أساعدها في نقل البضاعة إلى السيد مختار الذيب، كدتُ أرفض وأقترح أن تذهب هند معها، ولكن شعوري بشيء يلدغني لا أعرفه، ولأن ليس لدي ما أفعله في ذلك اليوم فقد لبيت رغبة أمي، نفضتُ عني

Twitter: @ketab_n

الضجر وساعدتها بوضع البضاعة في أكياس النايلون الشفافة، كانت أمي تسجل في دفترها تاريخ البيع وعدد العباءات والجلبيات والإيشاربات ومن ثم نضعها في كارتونات.. كان يوم خميس عصراً، أمطرت السماء في الليلة الفائتة وأشرقت الشمس صبحاً، قادت أمي السيارة من بيتنا في السيدية إلى مدينة المنصور، كان صوت رياض أحمد يرافقنا (يكفيني صابر تعبت اعصابي) وثمة شيء يضغط على أعصابي كلما تكررت العبارة، وعندما مررنا بالقرب من (الريسز) قالت أمي: هنا خسر عمك نعمان ثروته قبل أن يدمن على الخمرة.. لم أرد، الشيء الذي يلدغني يُحرك دواخلي فأصمت، وعندما أصمت تعرف أمي أن الأمر الذي تتحدث عنه لا يعنيني فتصمت هي الأخرى.. نادراً ما رأيت عمي نعمان صاحياً، فقد كانت الخمرة تلعب برأسه وتنخر جسده بعد خساراته الكثيرة في الحياة وأقساها مقتل ولديه في الحرب ثم موت زوجته بالسكتة القلبية بعدهما، لمن أبقي ثروتي وقد مات ولداي؟ يكرر هذه العبارة كلما حاول أحدهم أن يجنبه المزيد من الخسائر.

بعد عدة شوارع توقفت أمي أمام بناية صغيرة من طابقين، قرأتُ اليافطة: محلات مختار الذيب للألبسة النسائية، طلبت أمي أن أدخل البناية وأخبر مديرها بالبضاعة، بقيت هي داخل السيارة وقالت لي موضحة: مكتبه على اليمين، رجل أشيب معوج الفك.

الجهة اليمنى لها باب عند المدخل أما الجهة اليسرى فتمتد بموازاة الشارع ومفتوحة عليه بفترينة واسعة لعرض الملابس النسائية وملحقاتها من الأكسسوارات والشالات وحقائب السهرة صغيرة الحجم، وبنظرة سريعة رأيت إحدى عباءات أمي على أحد الموديلات، وحينما دلفت واتجهت يميناً وجدتُ الباب مغلقاً لكن عبد الحليم بكل أحاسيسه الجياشة كان يغني

Twitter: @ketab_n

(بأمر الحب إفتح للهوى وسلّم) ودون أن أطرق الباب دفعته بهدوء، وما إن دخلت حتى صرت وجهاً لوجه أمام قدري الذي طالما حلمتُ به.. اجتاحتني نظراته وتسمّرت عيناي بالدهشة على عينيه كأن الزمن توقف للحظات معرباً عن دهشته أيضاً، ثم تحركت شفتاه وقال: تفضلي، أية خدمة أقدمها لك؟ ودون أن أتمعن بكلماتي قلت: أين المدير صاحب الفك المعوج؟ ابتسم الشاب وقال: إنه في الحمّام، انتظري قليلاً، وأشار بيده أن أجلس فجلست على كنبة من الجلد الأسود قبالة المكتب الذي يجلس خلفه، متمنية أن لا يعود السيد مختار الذيب من الحمام حتى نهاية العمر، ما الذي يرتطم في أعماقي؟ هل العفاريت التي كانت نائمة لفترة طويلة هي التي تحرك زعفران جسدي؟

. ماذا تشربين، شاي، عصير، قهوة؟

- لا، أمي تنتظر في الخارج .

همّ بقول شيء إلا أن رجلاً طويلاً وسميناً دخل في هذه اللحظة، قال الشاب وهو يوجه كلامه لي:

- هذا هو السيد مختار.

لم يكن فكه معوجّاً، لكن ما إن قال: أهلاً وسهلاً، حتى تحرك فكه الأيسر من مكانه قليلاً، قلت:

- أنا (ريام) ابنة السيدة سمر.

Twitter: @ketab_n

تهلل وجهه وغمره فرح غير مبرر، على الأقل بالنسبة لي حتى تلك اللحظة، وازداد اعوجاج فكه حينما سألني:

- وأين السيدة سمر؟ قلت كأنني أحثه على الخروج:

- تنتظرك في السيارة.

خرج في الحال وبقيت أنا مع النار التي تلتهمني، والتفتُّ إليه، كان يتأملني بعينيه الغارقتين بالغموض وقال:

- إسمي نجم الذيب.

قمت من مكاني بحركة لا إرادية وبدا عليّ الارتباك وأردت الاعتذار عما بدر مني بحق أبيه وهممت بالخروج لكن عبد الحليم حافظ ما يزال متشبثاً بأمر الحب، قال نجم الذيب ضاحكاً:

- لا تخافي، ليست لديّ أنياب تنهش.

قلت مرتبكة:

- أعتذر لأنني قلت كلاماً لا يليق عن أبيك.

وقبل أن أسمع رده خرجت مسرعة من الغرفة، كنت أريد أن أتنفس بعيداً عن اللهب الذي غطاني، شعرت بتعرّق فيما ظل قلبي يخفق... أهذا ما يسمونه الحب؟

Twitter: @ketab_n

كانت أمي واقفة مع السيد مختار تريه حسابات الدفتر، وأحد الصبية يُنزل الكارتونات من صندوق السيارة فذهبت لأساعده، حملت إحدى الكارتونات لكن صوت نجم بسمرني في مكاني:

- لا تحملي شيئاً هذا عملنا.

وسارع بأخذ الكارتونة من بين يدي، حركتُهُ زادت من ارتباكي ومن حرارة جسدي فقد احتضن الكارتونة كأنه يحضنني، ورمى إليّ نظرات نفذت إلى أعماقي وأخرستني، كنت أتمنى أن يتوقف زمن الاحتضان أطول ما يمكن، راحت عفاريت جسدي تتراقص، غير أن صوت السيد مختار خرق لغة الحب عندما نادى على صبي المحل:

- سلّوم، شاي مهيّل للسيدة سمر وابنتها.

اعتذرت أمي قائلة:

- لديّ مشاغل كثيرة، في المرة القادمة سنشرب الشاي.

ذلك اليوم ليس ككل الأيام في حياتي، لقد بدأت أولى خطواتي باتجاه بحر سأغرق فيه وحدي بلا نجم يهديني لا على الأرض ولا بأعالي السماء، وفي ذلك اليوم أيضاً لم أنتبه لما يجري من حولي، ولا حتى في الأيام التي تلت ذلك، سأعرف فيما بعد أن السيد مختار واقع في غرام أمي، هو الذي سيخبرني بذلك وليست هي.

عندما تشعر أمي بالتعب فإنها تأخذ استراحة من عملها، تنوب عنها هند وصابرين في الأمور التي لا تحتاج إلى كثير من الجهد مثل صناعة الأحزمة

Twitter: @ketab_n

والأوشحة وعمل البلك والتطريز على قطع الأتامين وتثبيت الأزرار، وأحياناً نأخذ كلنا استراحة طيلة النهاروتكون فرصة لها ولنا أن نرحل إلى زمن آخر، زمن سلالة النساء التي انحدرت منها، ربما لتبعدنا عن أيامنا المتشابهات، أحياناً نبقى جالسات في غرفة الخياطة أو في الصالة إذا كان الطقس بارداً، أو تحت عريشة العنب التي تظلل جانباً من الحديقة أيام الصيف، إنها تحكي عن عالم لا نعرفه، وعن حياة غير الحياة التي عشناها أو التي نعيشها، عالم يتعلق بزمن لم نعشه عاشته جداتها الأوائل، وحين تحكي عن ذلك الزمن تبدأ بعبارة: اللهم اغفرلي زلّة النسيان، بعد ذلك تقول:

أتذكر جدتي (فضة) في أواخر أيامها، بيضاء ذات عيون قهوائية، احتفظت بالكثير من ملامح جمالها برغم تقدمها في السن، كانت تحكي لنا كيف كان رجال عشيرتها يتصارعون للفوز بها فرسا الأمر على أحدهم ويدعى مسعود وهو الذي سيصبح جدي فيما بعد، والذي دلّلها وأغدق عليها الهدايا، ومن شدة خوفه عليها كان يرافقها في زياراتها إلى الأهل أو إلى الأسواق، وذات يوم أرادت زيارة امها المريضة وكان جدي منشغلاً بعمله فاتصل برجل يدعى يعقوب، يملك عربة أنيقة يجرها حصانان أبيضان ذات مظلة تحمي من الشمس اللاهبة في الصيف و من المطر في الشتاء، وعادة ما تستأجرها العوائل الميسورة في التنقّل.. وصل السيد يعقوب إلى باب البيت في الوقت الذي حدده جدي مسعود، وخرجت فضة بقامتها السامقة، البوشية تغطي وجهها، وترن خلاخيلها الذهبية بنغمة لها وقع خاص، ركبت العربة دون أن تلقي التحية على يعقوب، وما إن اتخذت مكانها حتى ساط يعقوب الحصانين فتحركت العربة، تعرف فضة الطريق جيداً، وسبق ليعقوب أن أوصلها إلى بيت أهلها مع جدي مسعود، فما باله هذه المرة ينحرف بعد منتصف المسافة؟ سألته فقال لها: يقولون إن الحكومة تريد تعبيد الطريق

Twitter: @ketab_n

لذلك فهو مغلق وعلينا أن نسلك طريقاً آخر، صمتت فضة لكن قلبها لم يصمت، كان دليلها بالشعور أن يعقوب يضمر لها سوء نية، وأثناء ما كانت ترفع بوشيتها لتتبين الطريق بشكل أوضح كان يعقوب قد التفت وهاله جمالها الذي كان يسمع به دون أن يراه، فأوقف العربة في طريق خال من المارة ونزل ماداً يده في جيبه، ارتابت فضة مما يفعل فسألته: لماذا أوقفت العربة؟ فما كان منه الا ان يخرج لها حزمة من النقود ويقول لها: تبارك الخلاق، كان عليهم أن يسمونك ذهب وليس فضة، ردت عليه: أنت مجنون ولا تدري ماذا تفعل، قال لها: أعرف، ولا أحد سيعرف ما سنفعله، هذه الفلوس لك، وتعالي معي إلى تلك الشجرة وارفة الظلال، سأريك ما لم يُرِك إياه مسعود، ومّد يده وأنزلها عنوة، فما كان منها الا أن لطمته على وجهه وبصقت عليه وهربت صارخة بأعلى صوتها لعل أحداً يسمعها.

هنا توقفت أمي عن الكلام، وعندما طالبناها بالمزيد وماذا حدث بعد ذلك قالت: لا أعرف، سمعت الحكاية من جدتي إلى هذا الحد، أكيد أنها واصلت طريقها إلى بيت أهلها وأخفت الخبر عنهم لكي لا تُسفك الدماء، أو أنني نسيت بقية الحكاية.

الى هنا تبدو حكاية الجدة فضة معقولة، لكن ما ليس معقولاً هو أن فضة الجميلة ذهبت ذات يوم إلى ساحر القرية (وهدان) وكان ذلك قبل زواجها من مسعود، طالبةً منه أن يُنهي الصراع من أجلها بين ابن عمها وابن خالها، فأعطاها وصفة أعشاب مطحونة وورقة مطوية مكتوب فيها طلبهُ من أحد الجن أن يُنزل الكراهية في صدريهما فلا يعترضان طريقها لتتزوج من الرجل الذي تحبه، وأمرها أن تقوم بحرق الورقة والأعشاب ليلة الأحد على الإثنين

Twitter: @ketab_n

مع قراءة المعوذتين، وحينما فعلت ما أمرت به لم يعد ابن العم ينظر اليها، ويغض ابن الخال الطرف كلما رآها، حتى تزوجت حبيبها مسعود.

أما حكاية (مدلولة) إحدى نساء العشيرة فتبدو غريبة وغير مقبولة، قالت أمي عنها بأنها عاشت في بداية القرن الماضي وماتت قبل أن تبلغ الثلاثين من العمر، وكانت لا تعرف القراءة ولا الكتابة ولطالما ألحّت على أبيها لتتعلم لأنها تريد أن تقرأ القرآن وتفهم ما فيه، وكانت تخفي الرغبة الحقيقية للتعلم وهي كتابة رسائل لحبيبها في الطرف الثاني من المدينة وذات ليلة حلمت برجل وقور يرتدي البياض، يحمل أوراقاً ويطلب منها أن تتعلم، ثم راح يزورها كل ليلة في الحلم ويعلمها حتى اكتمل تعليمها، ولم يقتصر تعلمها على قراءة القرآن فقط بل راحت تجوّده بصوتها الرخيم، وتمشي مسافات بعيدة لتوصل رسائلها إلى من يوصلها لحبيبها.

مثل هذه الحكايات تنعش خيالي وأتسلى بها وأنسج على شاكلتها قصصاً، إلا أنني لا أصدقها ولذلك سألت أمي إذا ماكانت تصدقها أم تحكيها لنا من أجل التسلية وتزجية الوقت فقالت بأنها تصدق أن جدتها فضة ذهبت إلى ساحر فمهنة السحر كانت منتشرة في زمانها، وقد تكون النتيجة التي آلت اليها حكاية ابن العم وابن الخال قد جاءت مصادفة، لكنها تشك بحكاية الرجل الذي علم مدلولة القراءة والكتابة في الحلم، لأنها كانت قد سمعت من امها عن الجدة فضة التي روت الحكاية أن مدلولة تعلمت على يدي الملاية حسنة التي كانت تعلّم الصغار قراءة القرآن والأحاديث النبوية.. هكذا تفلت أمي من قبضة أسئلتي وتتخلص من وزر ما يأتي من مبالغات، لكنها حين تأتي على حكايتها الخاصة فإن المبالغات تختفي، لأننا، بناتها، شاهدات

Twitter: @ketab_n

على الكثير مما حدث لها، والحكاية الأثيرة لها هي ماجرى لها مع أبي، تحكي من دون أن تتظلّم أو تشعرنا بأنها ضعيفة وخانعة.

الآن حيث رحلت أمي عن الدنيا، تاركة آخر عباءة لم تكملها أصابعها، بقي في ذاكرتي مكان يتسع لحكاياتها فأصغي لطيفها المحوّم من حولي كما لو أنها ماتزال خلف ماكنة الخياطة أو تعد الطعام لنا بنكهات متعددة، تغني تارة أوتحكي تارة أخرى عن حياتها فأستفزها بأسئلتي لتحكي المزيد، ويخيل لي أن أصابع هند وصابرين ماتزال تشتغل على التطريز وصنع الورود أو تثبيت الأزرار والقصب البرّاق، وبرغم أننا عاصرنا بعض الأحداث إلا أن أمي تعيدها علينا بإضافات جديدة لم نكن قد سمعناها من قبل.

صوت أمي الخفيض برنته الهادئة يزاحمني في هذه اللحظة، يعبر من بين أصابعي إلى الورق، يريد أن يحكي ما يخصها بلسانها، وها أنا أترك لها مساحة البوح على أوراقي وأصغي لصوتها الخفيض وأكتب بلسانها، ويدور بيني وبينها حوار مفترض أخذ من بعض ما كنت قد سمعته منها بعض صدقيته، كأننا ما نزال نجلس في زاوية من زوايا البيت:

- كاد اسمي يندثر ويحل محله اسم (أم البنات) لولا أنني تداركت نفسي وفتحت محلي في شارع النهر قريباً من المتاجر الكبيرة التي تبيع الألبسة الجاهزة، بيافطة مكتوب عليها(محل سمر الفضلي للألبسة النسائية)

- عذراً أمي إنك تقفزين على السنين، فالمحل الذي تقصدين جاء بعد موت أبي، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- اسمعي يا ابنتي، إن الزمن عندي مرتبك، فنحن بعد الموت لنا زمن آخر لا تحدده الساعات، لن أحدثك عنه الان لكي لا أشتت ما تسعين له، وحسناً فعلتِ بتذكيرك لي وها أنا أتذكر، لقد جاء افتتاح المحل بعد أن ترملت، وبعد ما زاد الطلب على العباءات والفساتين والشالات المطرزة مودة العصر، قبل ذلك (تعالي يا أم البنات) (روحي يا أم البنات) (ماذا ستطبخين اليوم يا أم البنات) كنت أغتاظ إلا أنني أكتم غيظي بمزيد من العمل لكي لا تشمت بي جدتك النكدية، وأفتعل الابتسامات قدْر ما أستطيع، فلقد تعوّدت على الصبر مع الزوج النزق الذي خانني مع عشرات النساء، ولم تتوقف نزواته إلا بعد أن تزوج من بهيجة التي يبدو أنها أبهجته في الفراش أكثر مما كان يحلم به، فما عاد يطارد النساء، ولولاها لكان قد وقع في ما لا تُحمد عقباه.

- أريد أن أعرف يا أمي المزيد عن ما لا تُحمد عقباه، فلقد كنتِ تكتمين الكثير عنا، وما دمت الان حرة من كل المتعلقات الدنيوية فيمكنك البوح حتى بما لا تشتهين.

- لا يا ابنتي، أريد أن أبوح بما أشتهي أما ما لا أشتهيه فقد تخلصت منه وإذا مرّ بعالمي لم أعد أقيم له وزناً، هل تذكرين زاهدة التي قتلها زوجها أيام كنا في البيت القديم؟

- بخصوص البيت القديم فلقد عدتُ إليه لكنني لم أكتب عن تلك العودة حتى الآن، مرت أحداث كثيرة سأكتبها أولاً، كما خططت لها، أما زاهدة فقد نسيت الكثير من ملامحها:

- تكتبين؟ هل تركتِ المهنة؟

Twitter: @ketab_n

.كلا، أريد فقط أن أجد وسائل أخرى للحياة وأخرج ولو قليلاً عن الروتين، تعرفين يا أمي لقد أصبحتُ وحيدة وأريد أن أطرد الوحشة عن أيامي، لكن أعدك بأنني لن أترك الخياطة أبداً، والآن يا أمي، انعشي ذاكرتي بزاهدة.

- هي امرأة خمرية البشرة واسعة العينين شعرها أسود فاحم تجدله عدة ضفائر تنزل إلى أسفل ظهرها، كانت الغواية غايتها والمتعة مع الرجال مرادها، وهي امرأة متزوجة من رجل عسكري ثكنته في مدينة أخرى، وكان أبوك من روادها، كلاهما يستغلان غياب الزوج ويلهوان، وفي المرة الأخيرة حيث أشارت له لم يفهم إشارتها فظنها تدعوه إلى بيتها، وبعد عشر دقائق طرق الباب فسمع صوت رجل يقول له : من؟ لم يكن ثمة وقت للهرب فاضطر أبوك للرد: أنا ياسين الصباغ، وحين فُتح الباب صار وجهاً لوجه أمام زوجها الذي لم يسبق لهما أن تعارفا برغم أن المسافة بين البيتين لم تكن بعيدة، لم يعمل أبوك يوماً في مهنة الصباغة لكن العبارة جاءت على فمه، ولم تخطف المفاجأة لون دمه بل سارع إلى القول: جئت حسب الاتفاق لصبغ داركم، ردّ الزوج: مع من اتفقت؟ أجابه دون ارتباك: معك، ألست أنت الرجل الذي جاء إلى محلّي قبل يومين؟ قال الزوج المستغفل: أنت غلطان أخي.. اعتذر أبوك بأدب جم لم يمتلكه يوماً وانسلّ من الزوج المخدوع مثلما تنسل الشعرة من العجين، عاد إلى البيت وراح يقص الحكاية على جدتك فيقهقهان دون خجل، ولما سمعتهما خرجتُ إليهما مستفهمة وكنت في المطبخ، حاول أبوك أول الأمر إسكات جدتك لكنها ومن أجل أن تزيدني قهراً روت لي الحكاية بين ضحكة ساخرة منها وضحكة لا مبالية منه، هما يعرفان بأنني لن أقوم بفعل مضاد، إن من شأن ذلك أن يضيّع بناتي الصغيرات، واكتفيت بالقول موجهة الكلام لأبيك: هذه إشارة من الله أن تكف، فإذا سلمت هذه المرة لن تسلم في المرة القادمة، وعندما انتهت إجازة

Twitter: @ketab_n

الزوج عاد لثكنته العسكرية وكان من عادته أن يغيب ثلاثة أو أربعة أسابيع قبل أن يأتي بإجازة أخرى، لكن لأمر ما فقد عاد بعد أقل من أسبوع ليجد زوجته مع رجل آخر في فراشه، عندها جن جنونه وشهر مسدسه فقتلهما معاً في السرير، ويبدو أن أباك فكر بالأمر كثيراً، كان يمكن أن يكون هو على فراش الزوج المخدوع، وبعد أيام قليلة قال لي: قررت أن أتزوج.. هالني ما سمعت وأخرسني، بقيت أنظر إليه مبهوتة، فأردف: خلفتك كلها بنات وأنا أريد ولداً، كنتِ أنت في سنتك الثانية.. وهكذا تزوج من بهيجة.

لم تتحدث أمي كثيراً عن نفسها إلا إذا سألتها إحدانا، لكننا بمرور السنين عرفنا أية أم عظيمة تلك التي أنجبتنا، ولكي أكون وفية لذكراها لابد لي من أن أمنحها ما تستحق بعين البنت التي رأتها وعاشت معها وكثيراً ما ناكدتها لمجرد استفزازها ومعرفة ما تُخبؤه تحت طيات روحها الشفافة.

تخرجت أمي من معهد الفنون البيتية قبل زواجها من أبي وهي قريبته، وكانت منذ الصغر لا تلبس الثوب إلا إذا أعجبها وكثيراً ماكانت تذهب مع أمها للخياطة وتملي عليها ما تحبه في الثوب: أريد كشاكش بالصدر، أريد الثوب كلوش من الأسفل، هل بالإمكان جعل خطوط القميص متعاكسة؟ أحب أن تكون الجيوب على شكل قلب، هل يمكن تطريز فراشة على الصدر؟... وعندما تخرجت أمي راحت تصمم وتخيط ملابسها بنفسها، تستخرج الباترون من مجلة البوردا وتحوره بإضافات من ابتكارها،وحينما قررت أن تخيط لنساء الجيران والمحلة منعها أبوها بحزم: لا نريد بلاوي النساء تدخل إلى بيتنا، واكتفت بالخياطة لها ولأفراد عائلتها، ولم تتخذ من الخياطة مهنة إلا بعد زواجها حينما مرت بظروف مادية صعبة برغم قلة الزبونات في تلك الفترة حيث كانت البلاد تمر بحالة ركود اقتصادي ترك أثره

Twitter: @ketab_n

على الحياة الأسرية.. وتطور عملها بعد أن بدأت تشتغل بالتطريز على الثياب والعباءات، تجمع بضاعتها وتبيعها على أصحاب المحال في المنصور والكرادة، أو تمضي بها إلى شارع النهر، وكان أصحاب المحال يفاصلون كثيراً في السعر ولم تعترض أول الأمر لأنها تريد لها موطىء قدم في السوق لتعرض مهاراتها بل ترضخ للسعر الذي يحددونه مع بقاء هامش ربح قليل لا يوازي الجهد المبذول، لكن ما إن بدأت ثيابها وتطريزاتها تلقى رواجاً عند النساء المقتدرات حتى بدأت تتقن فن المساومة وتفرض السعر الذي يرضيها، وكلما ازداد الطلب تنوعت معه ابتكاراتها واحتاجت إلى مساعِدات لها، لكنها التزمت بوصية أبيها حتى بعد موته: لا نريد بلاوي النساء تدخل إلى بيتنا، وهكذا صرنا نحن، فراشات قلبها كما يحلو لها أن تسمينا، تحت إمرتها في الأشغال البسيطة وكبرنا مع ابتكاراتها وعشنا مع صوت الماكنة الذي لا يهدأ إلا في أوقات قليلة وعند ساعات الليل.. لم نكن نعي في الصغر أن أمي تهرب من عذاباتها إلى الماكنة تبرم مع الخيوط والرسومات خيوط آهاتها وتصمت على ما تلقاه في السر والعلن من أبي وجدتي مسعودة، كانت الماكنة رفيقتها، بينهما أسرار استعصت على مخيلتنا، ولم نعرف الكثير من أسرارها إلا بالمصادفة أو في أواخر أيامها، مجرد حكايات عابرة لا تريدنا أن نقف عندها كثيراً، كانت ترينا وجه الحياة المفعم بالأمل، نصف الكأس المليان وليس النصف الفارغ منها، وكانت تقابل الإساءات بالسخرية أو بالابتسامات حتى وإن كانت مصطنعة: بهذا يا فراشاتي يمكنكن عبور دروب الدنيا الشائكة.

عندما يئست صابرين من دخول الجامعة بسبب ضعف المعدّل انخرطت في مهنة الخياطة، أما هند التي تتشبّه بأمي وتعدها مثلها الأعلى فقد أحبت المهنة منذ صغرها، ورأت فيها فناً يرضي طموحها، وبرغم أن معدلها يمكنها من دخول الجامعة إلا أنها فضلت مهنة أمي.

Twitter: @ketab_n

بمرور الوقت صار لأمي زبوناتها الخاصات من نساء المجتمع المخملي، الفستان بين يديها له روح تتناغم مع الأصابع التي تشتغل على نسيجه، مهنة الخياطة عند أمي مقدسة، النبي إدريس كان خياطاً وهو أول من خاط الثياب بالإبرة ودرزها، هذا ماكانت تكرره أمي علينا من وقت لآخر، وطيلة ما هي تعمل فإنها تلقي بتعليماتها على هند وصابرين: بداية التطريز تكون من وسط الرسمة لكي لا يتكرمش القماش.. وزيادة بالدقة فإنها تضع قطعة القماش المراد تطريزها بطوق دائري من الخشب لكي يبقى القماش مشدوداً وتقول لصابرين: إمسكيه بيدك اليسرى والإبرة باليد اليمنى، ودائماً تكون بداية العمل من الوسط إلى الجوانب ثم تلتفت إلى هند وتقول: لا تضغطي على الغرز.. وحينما تذهب أمي إلى سوق الأقمشة وعادة ما ترافقها هند فإنها تختار خيوط التطريز ذات الألوان الثابتة لكي تحافظ على سمعة مهنتها، وتصرف وقتاً طويلاً للبحث عن الأقمشة التي تصلح للعمل عليها فتختار الأقمشة اللينة ذات الملمس الناعم وتقول عنها بأنها تبرز مفاتن المرأة.. لكنها نظرت إليّ نظرة رعب عندما قلت لها ذات يوم: أريد أن تفصلي لي فستاناً مكسماً وبلا أكمام يبرز مفاتني، ضربت يدها في الهواء كما لو أنها تطرد بعوضة عن وجهها وقالت لي عبارة لم أفهمها تماماً في حينها: هل تلتقين بعليّة؟ وسأعرف معنى عبارتها بعد مضي وقت ليس بالقصير، فهذه العليّة امرأة سيئة السمعة تستوقف أمي وتلتمسها كلما رأتها في الطريق أن تخيط لها ثوباً قصيراً مخصّراً بلا أكمام يبرز مفاتنها، الا أن أمي تواجهها دائماً بالاعتذار: أنا لا أعمل حسب الطلب، طلبك موجود في العديد من الأسواق، كان ذلك قبل فترة وجيزة من افتتاح محل أمي في شارع النهر،إلا أن علية توسّلت أمي وقالت لها بأن الفستان الذي تريده لا تتوفر مواصفاته في الأسواق مثلما تريد فما يُعرض فيها من النوع التجاري أو غير المناسب لها، وبعد إلحاح وافقت أمي لكي لا تطرق هذه المرأة بابنا بين فترة وأخرى،

Twitter: @ketab_n

ودفعت ضعف الثمن الذي يستحقه الفستان مشترطة أمي عليها أن لا يتكرر الطلب ثانية.. بعد اكتمال الفستان غافلت أمي وارتديته برغم انه أوسع من مقاسات جسمي، وقفت أمام المرآة ورحت أتمعن بتفاصيله وشعرت بما يشبه الدبيب تحت جلدي.. كان ذلك أول وآخر فستان تخيطه أمي بطريقة البيع المباشر من داخل البيت، وظل الفستان الذي يبرز مفاتني حلماً سأسعى لتحقيقه ذات يوم، وعندما أقسمت لأمي أنني لم أعرف علية ردت بلين: شوفي يا بنتي، أنا عندما أقول مفاتن المرأة لا أعني العري، مفاتن المرأة ليست في الثياب العارية أو المكسّمة فالإثارة موجودة حتى في الملابس المحتشمة، المرأة بسلوكها هي التي تضفي الإثارة على الثياب وتجعلها نابضة بالحياة.

**

Twitter: @ketab_n

بعد أن أتقنت هند وصابرين فن الخياطة صارت أمي تعتمد عليهما في الكثير من الأعمال التي تتطلب صبراً ودقة، فكانتا تقومان بالتطريز وصنع الورود والأحزمة والياقات ذات السفايف بألوان مبهجة، بينما أصابعي تنأى عن الماكنة وتبحث عن شيء مفقود لا تتضح معالمه، مرة أجده في كتب الجامعة ومرة في قراءة القصص والروايات للدرجة التي أقرر فيها أن أصبح كاتبة فأهيىء نفسي وأكتب الخواطر أو أدون يومياتي، تارة في أحلام اليقظة وتارة أخرى في البحث بين الوجوه، ثم أقرر امتهان الخياطة لكنني سرعان ما أخرج هذا القرار من رأسي فالخياطة فن صعب خصوصاً مع التطريز اليدوي، وعندما سألت أمي ذات مرة لماذا تتعب نفسها بالابتكارات أو بتحوير الموديلات الموجودة في المجلات النسائية بينما تعج هذه المجلات بآخر مبتكرات الموضة التي يمكن نقلها من الباترون دونما تغيير، ويمكن التطريز بالماكنة بدل الجهد المضني بالتطريز اليدوي؟ كان ردها: موضة المجلات عمرها قصير، الموضة الحقيقية هي ما يناسب الجسم في كل وقت، والتطريز اليدوي فن لا يضاهيه تطريز الماكنة، إنه بالضبط مثل الفرق بين طعام البيت والطعام المعلّب.

لماذا أكتب عن تلك الأيام وأستحضر أرواح من ماتوا؟ هل خوفاً من نسيان ما جرى كما أحب أن أقنع نفسي، أم لأهرب من رمال الصحراء التي غطت حقولي وأحاول درأها لكي لا تتيبس تماماً؟ أم تراها رغبة لتخفيف الضغط على قلبي من هزيمتي في الحب؟ ربما هذا وربما ذاك وربما لكل تلك الأسباب.

قلبي لا يحتمل كل هذا الفراق، صرت أعد الأيام وأعد معها بضاعة أمي، وذات يوم بينما انتهينا من شرب شاي العصر اتصلت أمي بالسيد مختار

Twitter: @ketab_n

الذيب تخبره أن البضاعة اكتملت وستأتيه بها بعد العاشرة صباحاً من اليوم التالي.

صارت الساعات ثقيلة وممطوطة وظلام الليل يتربص بي ويسرق من عينيّ النوم، لم أنم حتى وقت متأخر، أحلامي برؤية (نجم) شرّقت وغرّبت، وعندما أطل الصباح تكاسلت عن النهوض من الفراش، ينطبق جفناي على نوم خفيف ثم ينفتحان على صحو لأسمع بينهما أمي تقول بأنني سوف أتأخر عن الجامعة، عن أية جامعة تتكلم أمي، النعاس يخدرني لكنني أنتبه لتكرار عبارتها وأقول لها: لن أذهب، إنه يوم انتخابات طلابية، تسحب أمي الستارة فيندلق الضوء، أنهض وأقول لها متحاشية النظر إلى عينيها: سأرافقك في نقل البضاعة، ترد وهي تخرج من الغرفة: اسرعي إذن، الفطور جاهز.. ولأن الإذاعة لا تبث أغاني السهر عند الصباح فلابد أن هند هي التي دسّت في المسجل أغنية (أسهر وانشغل) لنجاة الصغيرة.. جلسنا حول المائدة لتناول الفطور، مرتبكةً كنت، أمي قبالتي تحدق بي من آن لآخر، عيناي لا تستقران على شيء، تظاهرت بالإصغاء إلى الأغنية متجنبةً نظرات أمي حتى سمعتها تسألني:

- ما بك يا ريام؟

قلت دون أن أنظر إليها:

- لا شيء، فقط أنا ضجرة.

نبزت هند لتقول:

- ليس هذا جديداً عليكِ، فأنت ضجرة دائماً.

Twitter: @ketab_n

تجاهلتها وقلت:

- أشعر أن دروس التاريخ مزورة وهي التي تضجرني، المواد كلها جافة ولا حياة فيها، كلها عن أموات وانتصارات مزعومة وهزائم حروب، التاريخ كله مزوّر يا أمي.

علّقت هند:

- كنتِ تحبين دراسة التاريخ و..

قاطعتها:

- كنت، وكنت فعل ماضي، والماضي يعرّش على حياتنا بلا معنى، وأرجوك لا تعترضي على ما أقول.

صابرين لم تنطق بكلمة، وأمي نهرت هند والتفتت إليّ لتقول:

- إذن فكري بالمستقبل، الحياة الحقيقية بالفن والإبداع، والمهنة التي تأكلين منها الآن هي فن وإبداع وحياة.

هذا ما وددت أن أصل اليه، أمي تدعوني إلى مهنتها ومهنتها هي التي ستوصلني إلى نجمي.. ما تزال نجاة الصغيرة تسهر وتنشغل بينما قلت لأمي:

- عندك حق، أريد أن أتعلم المهنة يا أمي.

Twitter: @ketab_n

كانت هند تميل برأسها طرباً وهي تقضم سندويج الجبن، وصابرين تشرب آخر ما تبقى من الشاي في قعر الاستكان..وما إن قلت ما قلت حتى انفتحت ثلاثة أفواه واتسعت ست عيون.

**

اللقاء الثاني بنجم جاء بعد دهر من الانتظار حين رافقت أمي إلى محلات السيد مختار الذيب في المنصور، هذه المرة غيرت أمي الطريق الذي تسلكه ولم أسالها لم فعلت ذلك، وبعد عدة شوارع فرعية أوقفت السيارة، بقيت هي داخلها كما في المرة السابقة وطلبت مني النزول وإخبار السيد مختار بالبضاعة، ولم تكرر عليّ بأنه رجل أشيب معوج الفك.

ما إن لامست أقدامي الأرض حتى اندفعت كما الريح، لعلي ورثت خصلة الاندفاع عن أبي، طرقت الباب فسمعت صوتاً غير صوت نجم: ادخل.. دفعت الباب بهدوء، كان السيد مختار يجلس وراء مكتبه، اجتاحتني خيبة أمل استعصى عليّ ردعها، وكدت أتسرع وأسأله عن نجم لولا أن السيد مختار انفرجت أساريره وقال مرحّباً:

- أهلاً وسهلاً، أين السيدة سمر؟

قلت له:

- في السيارة ومعها البضاعة.

قام على الفور كأنه يقفز وقال:

Twitter: @ketab_n

- يجب أن نضيّفها هذه المرة.

خرج ولم يقل لي ابقي في الغرفة أو تعالي معي فبقيت في المكان اترقّب لعل السماء تدرك لهفتي وتأتيني بنجمي، تلاطمت أشياء كثيرة في داخلي وثقلت على صدري الثواني، ثم سمعت خطوات عند الباب وإذا بي وجهاً لوجه أمام نجم، كاد قلبي يهبط وشعرت بما يشعر به التائه في الصحراء عندما يجد بعد عناء علامة تدله على الطريق، ما إن صار قبالتي حتى قال:

- ريام؟

غمرني شعور بالفرح أنه لم ينس اسمي، ودون أن أتمعن بكلماتي كأننا كنا على موعد مسبق قلت:

- لماذا تأخرت؟

ابتسم وقال:

- أريد ان أراك على انفراد فأي الأوقات تناسبك؟

أسرعت للقول:

- كل الأوقات تناسبني.

ردّ ضاحكاً:

- يعني إذا قلت لك عند الفجر فهل ستأتين؟

Twitter: @ketab_n

وددت أن أقول سآتيك قبل صلاة الفجر، غير أنني سمعت صوت السيد مختار ونقرات حذاء أمي، قال نجم على عجل:

- غداً الساعة العاشرة صباحاً في مطعم الساعة.

أية ساعة مجنونة ستحملني عقاربها ومتى سيأتي الغد؟

الليل صار مسرحي، فيه أقف على خشبة الكتابة بلا جمهور، وحدي أطرّز الكلمات على الأوراق، وحينما تتعب أصابعي آخذ استراحة، أنزل إلى المطبخ وأعد فنجان قهوة لأعيد نشاطي أو أصعد إلى السطح وأتابع السماء، النجوم ما تزال تضيء، ملايين تسبح في الليل الداجي، تتلألأ وتتوهج، بعضها يسير وبعضها الآخر ثابت والنوع الثالث يضيء وينطفىء بالتتابع، لم يتغير شيء في نظامها برغم السنوات الطويلة التي كنت فيها أبحث عن نجمي بينها والسنوات الكثيرة التي مرت بعد لقائي به وحيرتي في أمره، كون متناسق تحركه قوة ربانية، لا نعرف كنهه ولن نفك طلاسمه لا بالعلم ولا بالخيال، لكننا نحلق في سماواته ونربط مصائرنا بفلكه ونستعيد زمننا المضاع من خلال نجومه وأقماره، الذاكرة تمدني بما يطيل البقاء على أوراقي، وها أنا أواصل رحلتي بإحساس من تتقدمه نجوم الكون لتنير دربه أو تحدد مصيره، تمشي أصابعي على خطوطها، تستعيد الكلام الذي صار ذكرى وتنثره فتسقط الكلمات مثل لآلىء أو مثل أحجار، تركض لاهثة إلى ذلك الموعد، أول موعد حقيقي مع رجل أحببته بأحاسيس الأنثى وأحببت غموضه أيام كان يأسرني الغموض.. كنت قد ارتديت فستاناً مكسماً بفتحة صدر تنزل قليلاً إلى هرمي صدري لكن أمي منعتني من الخروج بهذا الفستان الذي اشتريته جاهزاً من الأسواق ولامتني، لأننا تعودنا أن نلبس الفساتين من صنع يديها فبررتُ ذلك بأنها دائمة الانشغال بفساتين وعباءات المحل، كانت

Twitter: @ketab_n

أمي في هذا الوقت تعد العدة لحلم طالما تمنته وسعت إليه على مهل، ألا وهو افتتاح محل خاص بها لكي لا تتقاسم الربح الذي تجنيه مع أي تاجر، لذلك ازداد انشغالها بما يسمح لها بالتفرغ لعملها، وحينما أردت الخروج بذلك الفستان رفعت يدها بوجهي معترضة: كيف تذهبين إلى الجامعة بهذا الفستان؟ وتذكرت أنني قلت لها أريد الذهاب إلى الجامعة لكنها تذكرت وذكّرتني أن اليوم عطلة، فقلت لها بأن مكتبة الجامعة لا تعطل وأحتاج إلى بعض المصادر.. لا أدري كيف أسبك الكذب بهذه السرعة في برهة من الزمن دون أن أرتبك ولا يرف لي جفن، لا بد أن روح أبي هي التي تسعفني في مثل هذه المواقف، أمي أصرت على تغيير الفستان وأنا رضخت لكي لا أفوت على نفسي فرصة العمر فقلت لها: عندك حق ماما سأغيره، فقالت: البسي الزي الموحّد إنه محترم أكثر، عند هذا الحد اعترضت وقلت: لا أحبه، يكفي أنه على جسمي طيلة السنة لكنني سارتدي ثوباً محتشماً.

**

في الطريق إلى مطعم الساعة أزحتُ الشال الذي كان يغطي صدري وفتحت زرين من أزرار قميصي السماوي وأخرجت من حقيبتي زجاجة عطر رششت رذاذها على شعري ورقبتي وباطن كفيّ، ضربات قلبي تُسرع كلما اقتربت من المطعم، وقبل أن ألج البوابة الرئيسية توقفت لألتقط أنفاسي ولأعيد لقلبي هدوءه المفقود، دخلت حذرة، أنظر إلى زوايا المطعم الأنيق مدفوعة بزخم الحب المحبوس في صدري، جئت متأخرة عشر دقائق عن الموعد لأضمن وجوده قبلي، ماذا سأفعل لو جئت مبكرة ولم أجده هناك؟ ستكون الدقائق ثقيلة وتفضح ارتباكي، غريب أنني أشعر بالارتباك بينما منذ طفولتي كنت جريئة أحدق بعيون وقحة إلى الفتيان كأنني أدعوهم لكي يأخذوني بين

Twitter: @ketab_n

أياديهم إلى دنيا الأحلام الملونة.. مسحتُ المكان بنظرات قلقة كأنني مرصودة من آلاف العيون، ورأيته يرفع يده لي مبتسماً فمضيت نحوه بكل حواسي المضطربة، أحسّ هو بارتباكي فبررت الأمر بأنه لم يسبق لي أن جلست مع رجل في مكان عام، وأن هذه هي تجربتي الأولى، هذا صحيح إذ لايمكن اعتبار ما حدث مع ريحان بعمر مبكر تجربة حقيقية على الرغم من أنه ظل يسكن رأسي لسنوات وأشعر بالحنين إليه، كنت دائماً أنظر إلى تلك التجربة على أنها حكاية بريئة وطريفة ليس فيها إحساس الأنثى واضطراب الجسد.

الآن حيث ابتعد ذاك اللقاء ولقاءات أخرى تبعته ولاذت في صمتها يمكن أن أرى المشهد بوضوح، ليس بشكله الخارجي وإنما بدواخله التي عجزتُ عن فهم إشاراتها في ذلك الزمن الذي كنت فيه غارقة في بحر الغرام ولم أر غير نجم الذيب الذي يخفي وراء عينيه وداخل روحه حكاية أخرى ستغيّر مسار قصتنا وسأعرفها في وقت متأخر، ففي ذلك اللقاء لم أنتبه حينما قال في سياق الكلام (مكتب المدير) ومن المفترض أن يقول مكتب أبي، وفي لقاء آخر وردت على لسانه عبارة أنه يتفانى في عمله ليرضي (سيد العمل)، ربما كنت أظن وقتها أن العبارة طبيعية إيماناً منه بمقولة رضا الله من رضا الوالدين، والآباء سادة العمل.

كلما التقيت بنجم أشعر بقلق، شيء ما يغربلني برغم المشاعر المتدفقة بيننا، شيء ينتفض، كأن عيني نجم تختبراني، تبحثان عما وراء نظراتي غير تلك المشاعر التي جمعتنا،وفي جميع لقاءاتنا كان يتكلم بإيجاز شديد كأنه يقطّر الكلمات وأشعر معه بأنني عطشى، كأن كلماته تخرج من روح قلقة ومخنوقة تمر بصعوبة حتى تبلغ الشفتين، كلمات لا تناسب نبض قلبي ولا تروي ظمئي، لكنني كنت أقول لنفسي إن الأيام ستكشف لي الرجل الذي

Twitter: @ketab_n

أحببته.. حدثته عن مهنة أمي معترفةً له بأنني بدأت بامتهانها من أجله لتكون وسيلتي إليه فابتسم وقال: يمكنك الآن تركها والاهتمام بدراستك، إلا أنني قلت له بأن مهنة الخياطة صارت جزءاً مني، وأخبرته في ذلك اللقاء بأن اسمي في الأوراق الرسمية كفى وليس ريام وحكيت له إصرار أمي وأبي على مناداتي بالاسم الذي اختاره كل منهما لي وبأنني أفضل اسم ريام ولا يعجبني الاسم الثاني وبأنني أرغب بتغييره فقال لي بأنه على العكس يرى أن اسم كفى أجمل لأنه حاسم وقاطع، نقول كفى لكل شيء لا نريده، أو نقوله عندما نصل إلى حالة يستلزم معها الحسم، وإن مشكلتنا في الحياة تتضخم عندما نتردد ولا نحسم الأمور.. وفي لقاءات تالية كان مجرى الكلام يأخذنا إلى تفاصيل العائلة فكنت أسهب في كل صغيرة وكبيرة تتعلق بعائلتي وعن مغامرات أبي وزواجه من امرأة ثانية وعن شيطنتي الأولى بالاختباء تحت السرير، أما هو فكان كمن يهرب بطريقة مراوغة من كل سؤال يتعلق بعائلته بحيث يأخذني دون أن أدري إلى مواضيع أخرى فأنسى في حضرته العودة للسؤال، حتى جاء يوم انتبهت فيه إلى ذلك الهروب وقررت أن لا أفلت الأسئلة من بين شفتي.. لم نكن في مطعم الساعة وقتها بل في كازينو تدعى الظلال وتقع في شارع (أبو نؤاس)، كان الارتباك الذي تمكن مني في اللقاءات الأولى قد زال، بدا مهموماً حين سألته عن السيد مختار ولماذا يتحدث عنه كما لو أنه رجل آخر وليس أباه، زمّ شفتيه ورحلت عيناه باتجاه النهر، كان ثمة يخت يسير وتتسلل منه أغنية (حكم علينا الهوى) لأم كلثوم، ثم عادت عيناه تنظران إليّ بصمت لم أشأ أن أكسره، أحسست أنه لا يريد المضي بفتح خزائن ماضيه، أوحى لي بذلك ليس بعينيه فقط بل بهروب طراوة وجهه، اعتذرتُ منه لكنني قلت أيضاً: إن معرفة كل منا بماضي الآخر يساعدنا على بناء مستقبل خال من المتاعب، فقال كلاماً لم أفهمه في تلك اللحظات ولم أطلب منه توضيحاً بسبب حالة الحزن التي اكتست بها

Twitter: @ketab_n

ملامحه (سأطاردها) أينما تكون وربما سأقتلها إن تطلّب الأمر ذلك.. كنت أظن بأنه يقصد مطاردة وقتل المتاعب فهو دائم التلاعب بالكلمات ومعانيها.. عند هذا الحد انتهى ذلك اللقاء الذي كان آخر لقاء بيننا، إذ لم يعد نجم الذيب إلا حكاية بدأت سريعة وصاعقة ثم انتهت كما لم أتوقع تاركة لي حرقة الألم.. اختفى نجمي من السماء المحتشدة بالنجوم، ذاب كما نيزك وسقط في الظلمة البعيدة، وباءت جميع جولاتي إلى محلات السيد مختار بالفشل في رؤية نجم الذيب، لقد اختفى كأنه حلم مرّ على خاطري وتركني يقظة بعد أن سرق النوم من عيوني، ذهبت مرات ومرات دون علم أمي التي انشغلت بمحلها ولم تعد تعمل لحساب السيد مختار، كنت أقف أمام باب المحلات من الجانب البعيد وأرصد حركة الباب لعله يخرج، أو أرى الصبي الذي يعمل فأنادي عليه وأسأله، أخيراً قررت أن أضع حداً لحيرتي فدخلت الشركة، طرقت الباب الموارب ورأيت السيد مختار يجلس وراء مكتبه يقرأ في أوراق، وحينما رآني تهلل وجهه، ربما ظن أن أمي تنتظر عند الباب كعادتها، لكنني خيبت ظنه عندما قلت بعد أن سلمت عليه:

- مررت بالمصادفة من هنا وقلت أسلّم عليك، كيف حالك يا سيد مختار؟

ردّ بود أبوي:

- أنا بخير، هل جاءت معك الوالدة؟

قلت:

- كلا إنها في المحل.

كنتُ أصغي لكل حركة تند من خارج الغرفة فلعلها خطوات نجم.

Twitter: @ketab_n

- ماذا تشربين؟

قال السيد مختار فشكرته وقلت:

- أنا مستعجلة خليها في وقت آخر.

وشعرت بالارتباك الذي لابد منه وأنا أسأله عن نجم، فأخبرني بملامح حزينة:

- لا أظنني سأراه.

انتابتني هواجس مضطربة فسارعت لاستيضاح الأمر فقال:

- سافر نجم للسماوة ولا أظنه سيعود.

اعتصر قلبي ألم حاد كأن سهماً اخترقه وخرج صوتي محشرجاً:

. هل حدث بينكما زعل؟

وقبل أن يتفوه بكلمة رن هاتفه وانشغل به، فيما هرستني الظنون وتمدد الوقت كأن ساعة الزمن لا تتحرك، وما إن أغلق سماعة الهاتف حتى أسرعت للقول:

- عفواً سيد مختار، هل حدث بينك وبين ابنك نجم ما يستوجب الزعل؟

وكمن يرد عن نفسه تهمة قال:

- لا أبداً.

Twitter: @ketab_n

وسكت، بدا حائراً كما لو أنه يبحث عن الجواب، ثم قال:

- نجم ليس ابني، إنه قريب لي من بعيد لكنني تبنيته منذ سنوات وهو ولد طيب لكن... وتوقف عن الكلام، وضع يده اليسرى على جبينه كمن يفكر بما سيقول أو أنه ندم على ما قال فاستدرك:

- على العموم يا ابنتي سأنتظر، ربما يتصل، أو يعود.

بدا لي أنه لا يريد أن يقول أكثر مما قال، نهضت من مكاني واستأذنته دون أن ألبي رغبته بشرب العصير أو القهوة، ولمحت في عينيه أكثر من تساؤل، وحينما استدرت للخروج سمعته يقول:

- سلميلي على الوالدة، أتمنى أن تعود إلى التعاون معي وبالأسعار التي ترضيها.

وكمن تذكر شيئاً رحت أتساءل بينما كنت قد أصبحت خارج الغرفة وقرب الباب الخارجي: ماذا بعد اللاكن؟ كيف لم أسأل السيد مختار ماذا أراد أن يقول بعدها، ولماذا جئت إذن؟ عدت مسرعة ولم أطرق الباب هذه المرة، اعتذرت وقلت بينما كان ينفث دخان سيجارته إلى الأعلى:

- عفواً يا سيد مختار، أنت قلت عن نجم بأنه ولد طيب ولكن..هل لي أن اعرف ماذا بعد اللاكن؟

ابتسم ومن الغريب أنني لم أنتبه إلى اعوجاج فكه طيلة الوقت الذي حدثني فيه، قال بلا تحفظ:

Twitter: @ketab_n

- أظنك واقعة في الحب يا ريام، هذا أمر حسن فالحياة بلا حب لا تطاق.

لم أعلق، لا أريد أن يتمدد الكلام ويذهب إلى شجون أخرى، أضاف:

- أردت القول إن نجم له أولويات غير الحب عجزتُ عن زحزحتها وأنا أفضل حين يأتي هو الذي يخبرك بها.

سألته بيأس:

- وإذا لم يعد؟

أجاب بنبرة أبوية:

- عندها سأخبرك حكايته بنفسي.

أشياء كثيرة تغيرت داخل أسرتنا الصغيرة منذ انتقلنا إلى السيدية، تغيرت على مهل، لم أنتبه لها أول الأمر إلا بعد أن مرّ وقت طويل، كانت أهواء قلبي وجسدي قد سدّت عليّ المنافذ، السيد مختار الذيب متولّه بأمي كما سأعرف، لذلك فهو لا يناقشها في السعر الذي تفرضه عليه، وأمي تراوغه فلا تشد الحبل معه ولا ترخيه تماماً خوفاً من فقدان أو تعثر مورد رزقنا، وربما حين فكرت باستقلالها في محل كان الغرض للابتعاد عن طريق السيد مختار دون أن تجرح مشاعره.. وصابرين التي كانت رائقة البال وتضحكنا بتعليقاتها الساخرة بدأ الصمت يلفها وتميل إلى العزلة، وحينما تجلس معنا لا تتكلم إلا لماماً وتبدو منشغلة بأمور لا أعرفها ولاهند تعرفها أيضاً لأنني سألت هند فمطت شفتيها ثم قالت ربما بسبب اضطرابات الدورة الشهرية، إلا أن أيام الدورة الشهرية تنتهي ويبقى على وجه صابرين ما يُعكره، لكن

Twitter: @ketab_n

من الواضح أن أمي تعرف ولا تريد البوح، أقرأ ذلك في نظراتها وملامحها وأرصده في مزاجها الذي تعكر هو الآخر، غابت ابتسامتها الرائقة وصارت تفقد أعصابها لأتفه الأسباب، عمي نعمان الذي لاقى ترحيباً منا جميعاً أول الأمر بدأت علاقتنا به تتراجع حتى انقطع عن زيارتنا وكنت أعزو الأمر إلى إدمانه على الخمرة التي تأكل عقله وتترك روائحها على ثيابه وأعرف أن أمي واختيّ يتضايقن من تلك الرائحة، وهن أكثر مني يجلسن معه فقد كانت دروسي وأحلامي تجعلني في منأى عنه إلا فيما ندر، وفوجئت بأن أمي تبحث عن سكن جديد ادّعت حين سألتها بأنها لم تجد الراحة في السيدية، كلما سألت أمي عن عمي ردت بانزعاج: الخمرة ستقتله وأنا اشعر بالعار أن يكون عم بناتي سكيراً، وعندما قلت لها: إنه سكير منذ وعينا على الدنيا فما الذي تغير؟ ردت بعصبية: بدأ يتعاطى الحشيشة في الآونة الأخيرة وينام على الأزبال حينما يعود من الحانة لأنه لا يتذكر أين بيته.

لم يطل الأمر، فبعد أيام قليلة، بينما كنتُ عائدة من الجامعة، رأيت عمي أمام بيتنا يكلم أمي من وراء الباب الموصد:

- افتحي يا سمر، أقسم لك بأن الأمر حدث غصباً عني، لم أكن بوعيي، سأحكي لك كل شيء.

وترد أمي بصوت شرس:

- إن بقيت هنا أقسم بروح أمي بأنني سأبلغ الشرطة وستعرف ماذا يحدث لك.

Twitter: @ketab_n

كنت أقف وراءه دون أن يعلم بوجودي وأتساءل: ترى ماذا فعل عمي لتطرده أمي بهذه الطريقة المهينة وتهدده بإبلاغ الشرطة؟ وبينما هو يتوسلها وأنا اتسقّط الكلام التفت فجأة ورآني، كان يشد رأسه بكوفية حمراء لم يكن يستخدمها إلا في أيام البرد، ونحن الآن في أيام الصيف، تنزل من الأمام على حدود حاجبيه، ولاحظت ما يشبه الخرابيش على أعلى خده الأيمن قرب الحاجب، بادرته بالسؤال:

- ما الذي يجري يا عمي، وما هذه الخرابيش على وجهك؟

قال مرتبكاً:

.لا شيء، لقد وقعت قبل أيام على الأرض.

أردفت بسؤال:

- ولماذا لم تفتح لك أمي الباب؟

أجاب بنبرة من يدافع عن نفسه:

- أمك تتوهم أشياء لم تحدث يا ابنتي.

طبع قبلة على جبيني ورائحة العرق والثوم تفوح من فمه وثيابه، كدت أتقيأ لولا ابتعادي عنه، قال بأنه سيعود في وقت آخر تكون أمي فيه قد هدأت، كان ذليلاً ومنكسراً ومضى مسرعاً إلى بيته، ضربتُ الجرس وجاء صوت أمي المتوعّد:

- هذا آخر إنذار لك، إن لم....

Twitter: @ketab_n

فصرختُ بأعلى صوتي:

- هذه أنا ريام، عمي ذهب إلى بيته.

فتحت أمي الباب، بدا وجهها قاسياً وعيناها غاضبتين، سألتها حالما خطوت للداخل.

- ما الذي حدث ولماذا تريدين إبلاغ الشرطة عن عمي؟

قالت دون أن تنظر بعيني:

- لا نريده في بيتنا، إنه دائماً مخمور ويأتي بأفعال مشينة.

لم يرقني جوابها فسألتها:

- أفعال مشينة؟ مثل ماذا؟

حاولتْ أن تثنيني عن معرفة الجواب، لم تكن هند وصابرين معنا في الصالة، ربما كانتا في الطابق الأعلى أو في غرفة الخياطة، إلا أن أمي أمام إصراري لمعرفة ما حدث اضطرت للبوح:

- عمك الذي تصورته أباً لكُن تحرش بصابرين أثناء ما كنت أنا وهند في سوق الأقمشة وأنتِ في الجامعة، ولولا عناية الله لهتك عرضها، صابرين قاومته وشجّت رأسه بالمزهرية.

Twitter: @ketab_n

استغربتُ الأمر وقلت لأمي بأن عمي لا يمكن أن يقوم بفعل كهذا وإذا قام به فعلاً فهو خارج عن إرادته بسبب الحشيشة التي يتعاطاها، ويبدو أن كلامي أغاظ أمي كثيراً ففقدت أعصابها وردت علي بعنف:

- وإذا هتك عرض اختك ماذا سنفعل؟ هل نبرر له فعلته لأنه تحت سطوة الحشيشة؟

آه أيتها الأوراق، لعلك الآن تتنفسين دخان الماضي وتنفثينه حسرة، أنت بيضاء مثل قلب أمي قبل أن يغيرلونه الموت، اغفري لأصابعي ما تفعله على بياضك الناصع فالوقت يصفعني بشدة ولا يترك لي خياراً إلا اللهاث على خطوطك قبل أن تنفلت أيامي.

**

Twitter: @ketab_n

انشغلنا في الأيام التالية بالبيت الجديد المستأجر في منطقة العطيفية، بيت من طابقين تطل شرفته الخلفية من بعيد على نهر دجلة وتربض في حديقته الأمامية شجرتا نارنج وشجرة ليمون وبضعة شجيرات من ورود الداوودي والجوري، إيجاره أغلى بقليل من إيجار البيت السابق لكن عمل أمي يدرّ ما يفوق احتياجاتنا، تعب مضاف برغم استعانة أمي بعاملين لنقل الأثاث، وجاءت فاطمة قريبتنا التي تسكن في الجوار لتساعدنا، اشتغلنا قبل ذلك لمدة أربعة أيام، رزم قطع الأثاث، وضع الملابس والأحذية في حقائب، الزجاجيات من أدوات المطبخ والمزهريات وكلما هو قابل للكسر حفظناه في صحف قديمة قبل أن نرتبها في الكراتين.. ومن ثم حين وصلنا البيت قمنا بفك الأشياء من جديد وترتيبها في الأمكنة المناسبة، التعب الأكثر كان من حصة غرفة الخياطة، تثبيت الرفوف الخشبية، صف العلب لوضع الكثير من عُدة الشغل فيها، علب الإبر والدبابيس بأحجامها المختلفة، البُلك، والنمنم والخرز الملونة والفصوص البراقة، والكشتبانات وخيوط التطريز والأزرار، ترتيب المجلات المتخصصة بالخياطة والتطريز، خزانات معدنية لحفظ الأقمشة الخاصة بالزينة وعادةً ما تكون تلك الأقمشة من التول والساتان والأورغنزا، وخزانات للأحزمة وصناعة الورود والسوتاجات وقطع الأتامين، أما الأقمشة المستخدمة للعباءات والفساتين فلها خزاناتها الكبيرة التي ثُبّتت على أحد الجدران، أنواع عديدة من الأقمشة، موسلين وكشمير وكريب وتافتا وجورجيت وحبر وشيفون وصدر الحمام، وضعنا مشاجب في الزوايا، واحتلت الماكنتان أم الرجل والكهربائية، المكان القريب من النافذة العريضة المطلة على الحديقة.

Twitter: @ketab_n

صارت الجامعة أبعد بكثير، وتلبستني في تلك الفترة فكرة ترك الدراسة وتبني قول أمي: تجارب الحياة هي المدرسة الحقيقية، لكن مقولة أمي دخلت رأسي مؤخراً بينما كانت أمي قد تبنتها خلال سنين طويلة عاشتها وخاضت فيها حروباً صامتة وأنا لا أريد أن أخوض الحروب، أرغب بأن أحيا متنفسة عبق الأزهار ومحلقة بأحلام تسكن بين النجوم، لكن أحلامي تصطدم دائماً بواقع مغاير فإلى أي حد يمكنني تطويع الواقع بما يناسب أحلامي؟

**

اندهشت أمي للتغيير الذي طرأ على ميولي وإصراري على تعلّم المهنة، وجدت فيّ حماسة غير مسبوقة وصبراً ليس من طبيعتي، لم أكن اهتم بالخياطة قبل أن أقع في غرام نجم الذيب فأنا لست صبورة بما يكفي لهكذا مهنة، وكم حاولت وفشلت لأنني أفسد النموذج ولا أعير اهتماماً للنتيجة التي سيؤول إليها فأرمي ما بيدي وأقول لأمي: هذا لا ينفع معي، خليكِ أنت في الخياطة ودعيني لعالم الكتب، وما لم أقله لأمي قلته بيني وبين نفسي: إن نجمي جاء عن طريق مهنتك.. نضجتُ عاطفياً قبل الأوان، ربما منذ كنت أختبيء تحت سرير أبي ويمتلىء رأسي بخيالات لا حد لها، لم استطع نسيان ما كانت تفعله بهيجة مع أبي وأية شياطين من جسدها تخرج في الليالي التي يقضيها معها..ما إن رأيت نجم الذيب حتى استوطن جسدي أكثر من ذيب، وقعت على رأسي، أبحث عن أية وسيلة توصلني إليه فوجدتها في مهنة أمي، وفي هذا الوقت قررت دون أي إحساس بالتردد أن أترك الجامعة، لم أعد أطيق قراءة مذكرات من ماتوا أو من كانوا سبباً في حروب العالم، ولا أستسيغ الكلام المحشو بالكذب، ولا

Twitter: @ketab_n

تهمني منحوتات الأزمنة الغابرة، ولا المومياءات أو اللقى، أمي لم تعترض ولم تقل صابرين شيئاً لكن هند رمت سنارتها في نهر أيامي القادمة وقالت: الخياطة لا تنفعك ستملينها لأنك لا تمتلكين صبرنا، لم أعلق، أعرف بأنني أحتاج إلى الصبر، ليس بسبب مهنة الخياطة وإنما لكي تمر الأيام وألتقي بنجمي، لذلك رحت أجلس في غرفة الخياطة وأحاول أن أتعلم كيف أخرج الباترون من مجلات الأزياء، كيف أقص القماش وأثنيه وأخيطه باليد أولاً فإذا ما نجحت أجرّب الخياطة على الماكنة أم الرِجل، كيف أصف القصب البرّاق أو أدوّر البُلك أو أضع الخرز في مكانها المؤشر من قبل أمي، وكلما وجدت أمي فيّ الرغبة لمواصلة التعلّم علّقت: سبحان مغير الأحوال، فأبتسم وأردد مع نجاة، بان عليّ حبه من أول ما بان.

لا تستطيع أمي منع هند من عشقها لصوت نجاة الصغيرة لأنها تعرف أن الأمر يغيظها وربما يؤثر ذلك سلباً في إتقان العمل الذي بين يديها وهي أفضل من تتقنه بعد أمي، وتكرر هند لأمي بأن صوت نجاة الصغيرة يمنحها الدفق ويبث فيها النشاط.. أما أنا فأتابع تعليمات أمي ولمساتها المبتكرة وألقى التشجيع منها برغم أنني لم أفلح مثلها أو مثل هند وصابرين، لأن المهنة تحتاج إلى تركيز وأفكاري أنا تصول وتجول في أمكنة أخرى لم أسبر غورها بعد، صرتُ أعد قطع الملابس وأعد الأيام وأود أن تعمل أصابعنا بأقصى سرعتها لكي يتاح لي أن أرى نجم الذيب، كان ذلك قبل أن تفتتح أمي محلها وتستقل عن السيد مختار الذيب، عملتُ أول الأمر على أقمشة رخيصة مثل البازة وخام الشام والكودري والديولين، واحتجت إلى وقت طويل لأتقن العمل على أقمشة مثل الجورجيت والكريب والقطيفة والساتان والهمايون والحرير الصناعي والشيفون والكشمير، أقمشة من جميع الأصناف، سادة ومقلمة ومنقطة ومورّدة ،

Twitter: @ketab_n

ناعمة الملمس وخشنة، صارت أصابعي تستأنس الفصوص البراقة والخرز الملونة ومسكة المقص، الفراشات التي ترسمها أمي على الورق الشفاف ثم تنقلها إلى الأقمشة أكاد أسمع خفقات أجنحتها، صوت الماكنة يطربني ونجاة الصغيرة تأخذني إلى خبايا العشق الدفين وهي تتساءل: متى ستعرف كم أهواك يا أملاً، فأهمس لهند: في أصل القصيدة يا رجلاً وليس يا أملاً، فترد بالهمس ذاته ودون أن ترفع عينيها عن القماش: ليس من فرق كبير يا عزيزتي فالرجل والأمل متلازمان، صابرين لا ترفع رأسها هي الأخرى وأمي تعمل بصمت، غابت ابتسامتها وحل محلها قنوط على الشفتين، تحرشُ عمي بصابرين ألقى بظلاله عليها، هند حملت حقد أمي على عمي، أما أنا فساورني شك بما حصل، أو أنه حصل دون وعي عمي، فالرجل الذي لا يعرف أين يقع بيته وينام على الأرصفة لايمكن القياس على أفعاله، وأخيراً بدأت العزلة تلف صابرين وتأخذها بعيداً عنا حتى وإن كانت بيننا، تبدو قانطة ويائسة من كل شيء، لا ضحكات رنانة ولا نكات تأتي على لسانها، تكون معنا لحظات وتغيب ساعات.

**

ذات يوم لاحظت أمي سكوني المتوتر بينما كانت قدمها تتحرك على الماكنة أم الرِجل بسبب انقطاع الكهرباء وضجرها يتسع وتتأفف وتقول: متى تنتهي مشكلة الكهرباء، في النهار يعرقلون عملنا وفي الليل يحولون لياليا إلى ظلام دامس، فترد عليها هند: بعد قليل ستعود الكهرباء لأن برمجة القطع النهاري بدأت منذ أكثر من ثلاث ساعات، وكنت قد تركت قطعة القماش التي أعمل عليها جانباً فقالت أمي بامتعاض: الجامعة تركتِها

Twitter: @ketab_n

فلماذا لم تشتغل أصابعك؟ وقبل أن أرد عليها عادت الكهرباء، انتقلت أمي من الماكنة القديمة إلى الماكنة الكهربائية فهدر صوتها، ثم توقفت فجأة والتفتت إلى هند قائلة: تفقدي اختك صابرين، ليس من المعقول أن تنام كل هذا الوقت، كانت نجاة الصغيرة في هذه اللحظة قد بدأت أغنيتها كل شيء راح وانقضى، توقفت هند عن التطريز وأوقفت المسجل ريثما تعود كأن نجاة ستأخذ معها كل شيء وتحرم هند من سماعها.

أحبس نفسي في الوقت طال أم قصر، لا ألتفت إلى دقات الساعة الجدارية ولا يعنيني أمرها، الساعة الحقيقية هنا في جسدي، تدوس عليه عقاربها وتهرسه لكنني أقاوم، تصحبني روح أمي وتمنحني الصبر على احتمال وحشتي، يراودني شعور مع احتشاد النجوم الساطعة في السماء بأن الوجوه التي غادرتني تسكن هناك في ذاك الألق البعيد، لكنها في الوقت نفسه تلقي بظلالها عليّ فأحاول إزاحتها إلى وقت مرهون بمزاجي، مزاجي الذي تعكر منذ سنين ولم تنفع معه كل طرق التنقية، مزاج يشبه طقساً مضطرباً يجمع الفصول كلها في يوم واحد أو يسقطها لصالح شتاء طويل مثلج وممطر برعود مخيفة وبروق تكشف تحت سطوعها حتى خبايا النفس، فأكشف عن نفسي حجبها وأفتح أوراقي لأدوّن تلك الأيام التي تسربت وما عاد لها غير الذكريات.. تمشي أصابعي على الورق كأنها تمشي على وحل، حتى عندما أستعيد حلماً شفافاً كان لي فإنني أرى في زوايا ذاك الحلم بقايا وحل متحجّر ومُخدد بشروخ عميقة من اليباس، ومع ذلك أمضي إليها، إلى تلك الأيام وأكتب، أكتب عن ذاك اليوم الذي هزنا من الأعماق:

Twitter: @ketab_n

وقع المصاب علينا ثقيلاً لم نستطع تحمّله، حفر في قلوبنا وتركها جرداء خاوية، وخصوصاً قلب أمي، لم تكن الأيام التي سبقت انتحار صابرين قد أعطتنا إشارات لما سيحدث لها، كان انكفاؤها وكآبتها نتيجة طبيعية أعقبت تحرش عمي بها، ذاك التحرش الذي لم أصدقه، وإذا صدقته لم أتيقن من أن نوايا عمي مقصودة، لكن بعد المصاب الذي وقع لم نعد نغفر لعمي فعلته التي قادت أختي إلى الانتحار.

عندما سقطت صابرين في الكآبة انعدمت رغبتها في العمل وبدأت تميل إلى العزلة، ثم انتابتها من حين لآخر نوبات بكاء حادة تجعلنا جميعاً نهرع لها ونكون إلى جانبها وتطيّب أمي خاطرها فتعود شيئاً فشيئاً للعمل ولكن ليس بتلك الروح المتوهجة التي كانت لها، لدرجة أنها تخطىء أحياناً فتغرز رأس الإبرة في غير مكانها الصحيح أو تشك اصبعها بالإبرة فتسيل الدماء: إنها لا تركز، تقول أمي، وتضيف: أنا خائفة عليها، وصارت تحس بالتعب والضجر من بداية الساعة الأولى للعمل ويداهمها الصداع، ثم لا تلبث أن ترمي قطعة القماش وتعود لعزلتها، وأحياناً ترد على لسانها كلمات عن الموت وما بعده جعلت أمي تخشى تركها وحيدة في البيت، فإذا كنا مضطرات للخروج إما أن تخرجها أمي معنا عنوة وإما تُبقي واحدة منا معها، وكم حاولت أمي إقناعها لزيارة أحد الأطباء النفسانيين إلا أن جميع محاولاتها كانت تواجه الاعتراض من قبل صابرين فتصرخ: أنا لست مجنونة.. وعندما ساءت حالتها وصارت تحكي عن الموت بكثافة هرعت أمي إلى طبيب نفساني لتستشيره وإذا ما كان ثمة دواء لحالتها إلا أن الطبيب أخبرها بأنه من الضروري أن يرى المريضة أولاً، وإذا كانت ترفض العلاج ولا رغبة لها بالشفاء فهذا يعني أنها فقدت الرغبة في

Twitter: @ketab_n

الحياة، وفي هكذا حالة فإن الأدوية لا نفع فيها من دون معاينة سريرية.. وشدد على حضورها.

ربما جاءت زيارة أمي للطبيب متأخرة، إذ بعد يومين فقط من تلك الزيارة انتحرت صابرين، وبالتأكيد فإنها قد خططت للانتحار قبل ذلك الوقت لكن رقابة أمي أرجأت ما عزمت عليه.. إن طريقة انتحارها الغريبة تطلّبت ترتيباً مسبقاً لم نكتشفه إلا بعد فوات الأوان، لذلك، ومن أجل العمل على ما فكرت به بعد رقابتنا عليها فقد بدأت في الآونة الأخيرة تبدي انفراجاً طفيفاً في سلوكها للتمويه، هذا تفسير جاء متأخراً من قبلنا، فمثلاً تأتي إلى غرفة الخياطة بوجه باسم وتجلس معنا وترتب القطع وتشارك مع هند في صف البلك أو تقريم الملابس، هذا السلوك جعل أمي ترخي حبل متابعة حالتها وتقلص من حجم مراقبتها وتخفف من خوفها عليها، ومع ذلك، عندما طال نوم صابرين في غرفتها ساور أمي الخوف فطلبت من هند أن تذهب اليها وتوقظها، ثم طلبت مني أن أعد الشاي مع البسكويت لنأخذ استراحة من العمل، وما هي إلا دقائق حتى سمعنا صوت هند عالياً:ماما، صابرين ليست في غرفة النوم ولا في الصالة أو في الحديقة، رمت أمي قطعة القماش من بين يديها وأسرعت فتبعتُها، ألقت نظرة سريعة على الباب الخارجي فوجدته مقفلاً كما تركته، تحرص أمي منذ واقعة التحرش بصابرين إلى إقفال الباب، تفقّدت جميع الغرف ولم يبق الا الحمام فهرعت إليه، وما إن دفعت الباب حتى صرخت بصوت مخيف.

**

Twitter: @ketab_n

كم تساءلت عبر سنوات طويلة بعد ذلك الحادث المفجع لماذا اختارت صابرين الموت صعقاً بالكهرباء؟ هل استعرضت طرقاً أخرى فوجدت أنها غير فعالة فاهتدت إلى الكهرباء؟ الموت حرقاً على سبيل المثال قد تنجو منه بتشوهات تسبب لها معاناة كبيرة، أو غرقاً في نهر دجلة وقد ينقذها أحد، وربما فكرت بتعاطي كمية كبيرة من الحبوب المنومة لكن الشك ساورها بإمكانية الموت، لذلك ابتكرت موتها بطريقة مميتة، طريقة أنجع وأسرع، تملأ البانيو بالماء وتوصل سلك الكهرباء بأقدام أصابعها ثم تضع السلك الثاني بالزر الكهربائي.. كيف حدث الأمر؟ لاشك بأنها تعرف توقيت عودة الكهرباء ولذلك نفذت المرحلة الأولى من موتها قبل مجيء الكهرباء بدقائق وفتحت الزر ثم ما إن عادت الكهرباء حتى صعقتها بقوة مميتة، هذا أيضاً ما فكرت فيه أمي وتداولته معنا، لكنها لم تشأ أن تخبر به الجيران الذين توافدوا علينا بعد صراخ أمي، هرعت هند واتصلت بالشرطة، وحذرتنا السيدة علياء جارتنا في الدار المقابلة من الاقتراب من صابرين لئلا تكون شحنة الكهرباء ما تزال في جسدها برغم أن أمي فصلت السلك من جهة زر الكهرباء.

كانت بكامل ملابسها تغرق في سبات الموت بوجه مصفر وعينين مفتوحتين ومرعوبتين، هل كانت تشعر بالندم في آخر لحظة لكن قوة الصعقة لم تمهلها أن تعيد حساباتها؟..ولطالما تساءلت أيضاً: ترى أية مشاعر كانت تنتاب صابرين قبل لحظات من موتها؟ وأي عالم مرعب كانت تعيش تفاصيله في الأيام التي سبقت انتحارها؟ ولماذا لم نقدّر حجم انغلاقها على نفسها حتى انهارت عليها؟ كيف هوت نجمتنا بعد أن كانت مضيئة بيننا؟ أيتها السماء الصماء كم من النجوم انتحرت في ظلماتك؟

Twitter: @ketab_n

أتذكر يوم حضرت الشرطة إلى البيت، وتقاطر الكثير من الجيران الذين لم تكن بيننا وبينهم رابطة قوية إذ لم يمض إلا شهور قليلة على انتقالنا إلى العطيفية عندما وقع الحادث، البعض منهم تجرأ ودخل البيت بينما تجمهر عدد كبير في الخارج فقامت الشرطة بتفريقهم وإخراج من بقي منهم في البيت إلا قريبتنا فاطمة والسيدة علياء التي كانت تمسك بأمي وتهدّىء من روعها، ولأن أمي كانت قد أوصتنا، هند وأنا، قبل مجيء الشرطة أن لا نأتي على سيرة عمي لأن الأمر مخزٍ لنا فقد التزمنا بوصيتها، ولم يتطور الأمر أكثر من الاستجواب العادي بانتظار مجيء الكشف الطبي بعد أيام على واقعة الانتحار، لكن الشرطة بحاجة إلى سبب مقنع يجعل شابة جميلة في ريعان الشباب تُقدم على هكذا موت، ما الذي حدث قبل الانتحار، هل تشاجرت مع أحد في البيت، هل تعاني من مشاكل، ما طبيعة تلك المشاكل، هل كانت على علاقة برجل.. إلى آخر هذه الأسئلة التي نفيناها جميعاً وركزنا على حالتها النفسية، وكانت أمي من أجل أن تعطي بعض المبررات المقنعة قد أخبرت الشرطة بأن طبيعة صابرين هي الانطواء على نفسها منذ تداعى أملها بالدخول إلى الجامعة ولم يؤهلها معدلها للقبول، ولأنهم لم يعثروا على ما يدل بأنه حادث جنائي فقد اعتبروا الأمر انتحاراً بسبب اليأس من الحياة، في تلك السنة شهدت بغداد أربع حالات انتحار لثلاث نساء ورجل، فأضافت صابرين الرقم خمسة.

لماذا تبقى السماء محتشدة بالنجوم برغم أن موت الكثير منها على مدار الأيام؟ وأين تهوي تلك النجمات الساقطات من عليائها؟ يقال حين تموت النجوم بأنها تنهار على ذاتها بعد أن تنطفىء حرارتها، هذا يعني أن الأمر يشبه الانتحار، أو هو الانتحار بعينه، فلماذا تنتحر النجوم؟ وهل

Twitter: @ketab_n

انتحارها يشبه انتحار البشر من حيث الرغبة في الموت؟ هل انتحرت صابرين لأنها انهارت على ذاتها بعد صراع طويل أجج عندها رغبة الموت؟ وإذا كانت النجوم تنتحر بطريقة انطفاء حرارتها، فلماذا انتحرت صابرين بطريقة ضخ الحرارة إلى أقصاها في جسدها؟

كانت أكثرنا التصاقاً بعمي حينما انتقلنا إلى السيدية، تتصرف معه بعفوية وربما أقنعت نفسها أن ما يجمع بينهما ليس هو بالضبط مايجمع العم بابنة أخيه وإنما هو العاطفة التي تجمع بين البنت وأبيها، وهو من ناحيته اهتم بها وآثرها علينا فوجدت فيه ما افتقدته عند أبي من رعاية فضاعفت رعايتها له ولم تشمئز من رائحة الخمرة والثوم مثلنا، كانت أحياناً ودون أن تخدش مشاعره تأتي بعصير الليمون ومنديل تغمسه في العصير وتدعك به أصابع يديه ثم تغمسه ثانية وتمرره بلطف على وجهه قائلة بأن من شأن ذلك أن يعيد لبشرته الحيوية، وهي في الحقيقة تريد من عملها ذاك أن تزيل تلك الرائحة التي ترافقه على الدوام، وتوجه الكلام لنا حين يخرج بأنه مسكين لا يجد من يرعاه ولذلك سقط في براثن الخمرة، وإن طريقتها هذه في التعامل ستعيد إليه بعض ما فقده في الحياة، فتقول لها أمي: ما نفقده في الحياة لا يعود بعصير الليمون، وتسألها هند: كيف تتحملين رائحته؟ فترد عليها: أنظر إلى الإنسان فيه، إن الظروف الصعبة التي مرّ بها أحالته إلى هذه الحالة البائسة وعلينا أن نعيد إليه الأمل ونريه الوجه المشرق للحياة، وعندما نصمت ولا نرد تقول: نحن بحاجة إلى أب، وفي أول عيد مرّ علينا ونحن في السيدية زارنا عمي حاملاً صينية زلابية وبقلاوة، ففاجأتنا صابرين بتقديمها زجاجة كولونيا كانت قد اشترتها ولم تخبرنا بها، قدمتها له قائلة: يجب أن تحلق لحيتك، اللحية تجعلك أكبر سناً يا عمي، غمره فرح طفولي وفي ذلك

Twitter: @ketab_n

اليوم عرض على أمي أن نسكن معه فالبيت واسع عليه وكان ينوي بيعه وشراء بيت صغير إلا أن أمي شكرته واعتذرت قائلة إنها تفضل الاستقلال.

**

Twitter: @ketab_n

كانت السيدة علياء وفاطمة الأرملة التي تمت إلى أمي بصلة قرابة من بعيد، والتي سيتضح فيما بعد بأنها ليست أرملة، أكثر من اهتم بنا، تناوبتا على مواساتنا وتقديم وجبات الطعام وعمل الشاي والقهوة للضيوف، وزارنا خالي إبراهيم وزوجته سمية التي بقيت عندنا حتى اليوم السابع لأيام العزاء، كما زارنا السيد مختار الذيب ولم يكن معه نجم، وعلى الرغم من المصاب الأليم الذي أثر في نفسي فقد كان ثمة سؤال يتلجلج على شفتي وأعرف بأنه ليس من اللائق أن أطرحه في مثل تلك الظروف: هل عاد نجم الذيب من السماوة؟

ما لم نكن نتوقعه هو حضور محمود، هند هي التي فتحت له الباب وكنت منشغلة بغسل الصحون في المطبخ، ومن خلال الشباك المطل على الباب الخارجي لمحته، لم أتعرف عليه، هند أيضاً قالت لي فيما بعد بأنها لم تتعرف عليه وظنت أنه أحد أبناء الجيران، شاب أسمر طويل بشعر مسبول ممشط إلى الوراء وأناقة واضحة في الملبس، بنطلون جينز وقميص أزرق مكفوف الأردان وسترة بيضاء، وبسلسلة ذهبية حول الرقبة، أدخلته هند إلى غرفة الضيوف وجاءت إليّ مسرعة لتقول: هذا محمود.

محمود من؟ سألتها فأجابت: (أخونا) كأنها تعيد ميتاً إلى الحياة عندما قالت (أخونا) ولم أرد، عقدت الدهشة لساني فأردفت هند: ماذا سنقول لأمي؟

كانت أمي مع سمية زوجة خالي في الصالة بعد أن غادر خالي إبراهيم وتركها عندنا، قلت لهند لا يمكننا تجاهله اخبري أمي.. ومضت إلى

Twitter: @ketab_n

الصالة.. أكملتُ أنا غسل الصحون وذهبت إلى غرفة الضيوف، ما إن دخلت حتى قالت أمي لمحمود:

- هذه اختك ريام، هل تتذكرها؟ ابتسم ابتسامة عابرة وقال: أنا لا أنساكم جميعاً لكن الظروف الصعبة التي مررتُ بها هي التي أبعدتني عنكم.

سألته أمي:

- أين كنت طيلة هذه السنوات؟

رد بالقول:

- في لبنان، مكثت قبلها في دمشق شهرين ثم ذهبت إلى لبنان، ولأنني دخلتها بطريقة غير شرعية فقد أمسكوا بي ورموني في السجن.

كانت عينا أمي تخبراني بأنها تود القول: أنت متعود على السجن منذ نعومة أظفارك فما الغرابة في ذلك؟ولما لم يجد تعليقاً على ما قال أكمل:

- ثلاث سنوات قضيتها هناك.

كنت وهند صامتتين، وسمية زوجة خالي تخزره بعدم ارتياح وتتناوب هي وأمي على الكلام معه كأنهما تستجوبانه، قالت سمية دون مراعاة لمشاعره:

- ثلاث سنوات؟ لابد أنك فعلت شيئاً منكراً وإلا فإنهم لا يسجنوك كل هذه المدة لمجرد دخولك البلاد بطريقة غير شرعية.

Twitter: @ketab_n

بدا محمود في تلك اللحظات محرجاً، تململ في جلسته قبل أن يقول:

- في الحقيقة كنت مع صديق لبناني تعرفت عليه في دمشق أخبرني بأنه سيجد لي عملاً في صيدا وأخذني بسيارته، لم أكن أعلم أنه يخفي تحت أحد المقاعد كمية من الهروين.

سكت ونقّل عينيه بين أمي وسمية، ولمّا لم يجد فيهما ما يوحي بتصديقه قال:

- أقسم بروح أبي ياسين لم أكن أعلم بذلك، كنت أعاني من وضع مادي سيء وأحتاج للعمل، على العموم انتهت تلك الأيام السود،عدتُ منذ عام إلى بغداد وأعمل في مجال البناء.

قالت أمي بنبرة لا تخلو من الشك:

- لكنك لا تبدو من عمال البناء، ما شاء الله هندامك مرتب وصحتك جيدة.

ابتسم محمود وقال:

- أعمل أسطة، أوجّه العمال وأنقلهم من المساطر في ساحة الطيران إلى مكان العمل ثم أعود بهم من المكان الذي أخذتهم منه بعد انتهاء العمل، أنا أعمل مع تاجر كبير في المقاولات.

لم تسأله أمي كيف عرف بحادثة انتحار صابرين ولا كيف استدل على عنوان البيت لكنه في سياق الكلام أوضح:

Twitter: @ketab_n

- قرأت الخبر في الصحف وذهبت إلى مختار العطيفية فلم يعطني العنوان وتذرع بأنه لا يعطي عناوين أهل المحلة للغرباء وأشار لي أن أمضي إلى مركز الشرطة، لكن بصراحة أنا أكره مراكز الشرطة وربما يسيؤون الظن بي لذلك رحت أسأل من الناس حتى وصلت إليكم.

كان وجه أمي عابساً طيلة الوقت الذي أمضاه محمود عندنا، ولولا مصابها وأحزانها التي تبرر ذلك العبوس لفهم محمود أنه زائر غير مرغوب فيه، وقبل أن يستأذن بالخروج قال لأمي:

- إذا احتجتم أي شيء فأنا موجود.. وأخرج من جيب سترته الداخلي ورقة صغيرة وقلماً دوّن رقم هاتفه وناوله لهند ثم أخرج من الجيب الثاني محفظة جلدية واستل منها مظروفاً تركه على الطاولة لكن أمي أبت إلا أن ترد المظروف ولم تفلح محاولاته بإقناع أمي التي قالت له بحسم: نحن لا نحتاج إلى نقود.. وما إن خرج تصحبه هند إلى الباب الخارجي حتى التفتت أمي إلى سمية وقالت لها: لماذا تتبعنا المشاكل أينما ذهبنا؟ قولي لأخي إبراهيم أن يتصرّف، لا نريد أية صلة تربطنا بمحمود، زمن ياسين الفضلي ولّى وعلى محمود أن يعيش بين أخواله أو يذهب إلى عمه المحشش، ولما عادت هند طلبت أمي منها الورقة المدون عليها رقم هاتفه، وعندما ناولتها إياها قامت أمي بتمزيقها.

كنت أتوقع أي شيء إلا أن يكون لمحمود وجود، لقد سقط من روزنامة أيامنا منذ سنين، منذ آخر مشاجرة بين أمي وجدتي مسعودة.. قالت سمية وهي تحاول تهدئة أمي الغاضبة: سأخبر ابراهيم بكل شيء، يكفيك ما أنتِ فيه.

Twitter: @ketab_n

في تلك الظروف التي نحن فيها تعرّض محل أمي للسرقة، سُرقت جميع محتوياته ولم يبق منه سوى الكاونتر والكرسي الذي تجلس عليه أمي والديكور المصنوع من قطع الخشب المزخرفة والسيراميك، كان المحل مغلقاً لأكثر من أربعين يوماً، لم نجرؤ لا هند ولا أنا أن نتحدث مع أمي عن المحل، بل على وجه الدقة لم نتذكره منذ اليوم الذي انتحرت فيه صابرين، وحينما وردنا الخبر عن طريق اتصال من صاحب المحل المجاور لم تقل أمي أي شيء سوى: حسبنا الله ونعم الوكيل.

أضاءت أمي الشموع لروح صابرين في أربعينيتها بعد عودتنا من المقبرة، جلسنا حولها وكانت معنا فاطمة، أمي تبكي بدموع لا نراها لكننا نحسها، ربما كانت عيناها تختزنان نهراً من الدموع سنغرق فيه لو استطاع إلينا سبيلاً، وجاءت أيام أخر لم تُخرج أمي من أحزانها، ولم تذهب إلى المحل لتفقّده بعد السرقة، وفي الحقيقة فإن سرقة المحل لم تصدمها ، كان حزنها الأوسع والأعمق هو انتحار صابرين، ولم تنته أحزانها، لكنها كما عرفناها في الشدائد، قوية وصبورة، شدت أزرها وطوت آلامها تحت جلدها وقالت لنا: آه يا فراشاتي، علينا أن نتجاوز الأحزان، لقد قضي الأمر ولا راد له، لوح مكتوب قبل أن تجيء صابرين للحياة، ماذا تنفع الدموع، حتى لو جرت بحاراً، هل سترجعها؟ أعرف أن جمرة فراقها ستظل تستعر في قلبي إلى أمد بعيد وقلبي تعوّد على لسع الجمر، وأعرف أننا سنمر بأيام عصيبة لكن علينا بالصبر، فالصبر هو الزاد وهو العُدة، والشفاء دائماً موجود إذا امتلكنا القدرة على تخفيف الآلام.

وشيئاً فشيئاً استطاعت أمي بحنوها علينا أن ترمم ثقوب أحزاننا وتضمد جراحنا، فسارت أيامنا بهدوء يشبه الرماد الساخن الذي سيبرد

Twitter: @ketab_n

رويداً بعد أن ينطفىء الجمر من تحته، عباءة الحزن السميكة تصبح غلالة تلفنا بأسىً شفيف، وعدنا نحن النساء الثلاث إلى مهنة الصبر،نعمل بلا هوادة، مستذكرين على الدوام صابرين دون أن نصرّح بذلك لكي لا نفجر براكين قلوبنا الحرّى، نشعر بروحها ترفرف بالقرب منا وأصابعها تعين أصابعنا على العمل، لو كانت الأصابع تتكلم لتحدثت بنفسها عن تلك الأيام، ربما أردنا بذلك العمل المحموم نسيان صابرين، وبرغم ذلك ما فارقنا طيفها لا في الصحو ولا في المنام.. كثيراً ماحلمت بها لكن الأحلام مشوشة أنساها بعد الاستيقاظ ولم أتمكن من الإلمام بها، سوى ذلك الحلم الذي مايزال لغزاً يحيرني، كنا في غرفة الخياطة، أمي وهند وأنا، نواصل العمل بصمت حين وقفت صابرين عند باب الغرفة، رفعنا رؤوسنا ننظر إليها مندهشات فقد كنا في الحلم نعلم بأنها ميتة، لم تنبس إحدانا بكلمة، هي التي تكلمت لما طال صمتنا: جئت أزوركم أيها الموتى.. تلك العبارة ظلت محفورة في رأسي تضيء كلما تذكرت صابرين، أو كلما أصابني يأس من الحياة، أغوص فيها باحثةً عن معناها العميق، متسائلة: هل نحن موتى وهي الحية بعد موتها؟

وبعد أيام أخر زارنا خالي إبراهيم ونقل إلينا خبر موت عمي نعمان، قال وهو يشعر بالأسف: وُجدت جثته على مزبلة، يبدو أنه شرب كثيراً، ثم استغرب كيف لم نعرف والخبر نشر في الصحف تحت عنوان(العثورعلى جثة رجل فوق القمامة) ردت عليه أمي مخفية نظرة التشفي: نحن لا نقرأ الصحف، وعندما خرج خالي قالت أمي بعد أن رفعت نظرها إلى السماء: شكراً يا رب، ميتة تليق به، إلى جهنم وبئس المصير.

Twitter: @ketab_n

كيف لي بعد كل تلك السنين التي عبرت تاركة خرائط أوجاعها على روحي أن أنظر إلى النجوم المحتشدة في السماء وأبحث بين لمعانها عن نجمي الذي تاه ولم أستدلّ عليه؟ هل ما يزال لي مسار في لوح القدر وأنا أتجاوز عتبة الثلاثين بأربع سنوات؟ كيف تأتى لي أن أتدرّب على الصبر وأمتهنه؟ بأية أصابع أعمل؟ وكيف نقلت أمي مهنتها إليّ أنا الملولة الباحثة عن أشياء عصية على التحقق ليس من بينها فن الخياطة والتطريز؟ ها قد نامت أمي نومتها الأبدية، وقبلها انتحرت صابرين وتزوجت هند من سامي ثم جرت سفينة حبها له بما لا تشتهي سفنها كما سيرد في هذه الأوراق، أما أنا فقد تزوجت الكثيرين وأنجبت أبناء لا عدّ لهم.. في أحلامي وليس في الواقع المضطرب الذي أعيشه، لكنني من حين لآخر أعود إلى تلك الفراشة الصغيرة التي كانت تختبىء تحت السرير وتتفرج على أبيها وزوجته، في مهرجان جسدي يستمر ساعات، ويخطر ببالي أيضاً ريحان الذي ترك لي رائحته في طعم الأغاني وطعم القيمر، لكن نجم يأخذ الحصة الأكبر من التذكر، ومن هذه الأوراق التي تتسوّد وتكثر يوماً بعد يوم، أتذكره ليس بقوة الحب الذي عصف بي، وإنما بالحال الذي وصل إليه، وأتساءل لماذا لم يُثنه الحب عن أن يكون قاتلاً يمضّي زهرات عمره وراء جدران السجن؟ كيف تأتى لعاشق أن يتحول إلى قاتل؟

أترك الأوراق وأدوس عجلة الماكنة، ومع دوران العجلة تدور الذكريات والأيام، تعود أمي بوجهها الصبوح وعينيها الضاحكتين بصمت، ترسم فراشاتها على الورق الشفاف اولاً كما كانت تفعل قبل سنوات، توجه تعليماتها بروح مرحة ومثابرة، وتعود صابرين تضحك وهي تتسلم رسمة الفراشات وتقول: الفراشات ستحترق بين أصابعي لرقتها، وهي تعني أن موديل الفراشات يحتاج إلى يد أكثر مهارة منها خصوصاً ما يتعلّق

Twitter: @ketab_n

بالجناحين المزركشين، لذلك تدفع به إلى هند، وتتبادل معها نقشة الورود، بينما أصابعي تعمل ببطء للعمل على زهرة الأقحوان.

تتوقف قدمي فتتوقف الماكنة، أترك لنفسي أن تمضي مع ابتسامة أمي إلى أيام السيد مختار، وتحديداً بعد أن قررت العودة للتعامل معه إثر سرقة محلها في شارع النهر، في ذلك الوقت وقفنا أنا وهند معها نشد أزرها، لم تكن صابرين معنا، كانت قد رحلت عن عالمنا إلى العالم الذي لا أحد يعرف سره، عالم موصد على نفسه بإحكام لكي لا تتسرب أسراره إلينا، تأخذني الذكرى إلى ذلك اليوم الذي أخبرت أمي فيه بأنني سأذهب إلى المكتبة المركزية، لكن الحقيقة هي أنني ذهبت إلى السيد مختار لعلي أجد عنده خبراً جديداً عن نجم لكنه نصحني بالكف عن عذابات الحب والالتفات إلى نفسي قائلاً:

- كل شيء قسمة ونصيب ونصيبك يا ابنتي ليس مع نجم، ابحثي عن نجم آخر.

عقبت على كلامه بالقول:

- أريد أن أعرف الحقيقة يا سيد مختار، أنت وعدتني بأن تخبرني بحكاية نجم.

كان ذلك في آخر زيارة لي بقصد السؤال عن نجم، ولاحظ عنادي وتصميمي لمعرفة ما حدث فجذب نفساً عميقاً كأنه آهة وقال:

- برغم أن ما سأقوله لك يدخل ضمن الأسرار لكنك ابنة العزيزة سمر ولا أريد لك أن تعيشي على أمل كاذب.

Twitter: @ketab_n

أشعل سيجارة وسحب منها عدة أنفاس وراح رأسي يدور بعبارة الأمل الكاذب وبدت الثواني ثقيلة قبل أن يكمل:

- جاءني الخبر منذ يومين بأن نجم محكوم عليه بالسجن المؤبد وهو الآن في أحد سجون السماوة.

توقف كل شيء فيّ للحظات، ربما حتى أنفاسي بينما أنفاسه تشفط الدخان وتنشره في فضاء المكتب:

- نجم قتل أمه، كان عمره أحد عشر عاماً عندما هربت مع عشيقها إلى السماوة، وتكفل به عمه بعد وفاة أبيه الذي لم يتحمل الصدمة، وتزوج عمه بعد ثلاث سنوات من موت أخيه من امرأة جميلة تصغره بعشرين عاماً، ولم يشأ أن يترك المراهق في بيته طيلة ساعات النهار التي يعمل فيها بعيداً عن البيت فكان يحثه على العمل إضافة إلى الدوام في المدرسة ليضمن أن زوجته في مأمن من الفتنة، ثم صار نجم يتنقل من بيت إلى آخر مُدركاً بأنه شخص غير مرغوب فيه، يهمزون ويلمزون بماضي أمه على مقربة منه، لقد غذّوا فيه روح الانتقام فعاش منذ صغره ذليلاً وأقسم أن يبحث عن أمه ويطاردها ليثأر لكرامة أبيه وكرامته، أنا الذي تكفلت به بطلب من عمه بعد أن نبذه الجميع ولم يتوان البعض منهم بالتشكيك ببنوته، كان يمكن أن يُحكم عليه حكماً مخففاً بدافع رد الشرف لكنه قتل أيضاً عشيق امه، الطريق إليه صار وعراً يا ابنتي وعليك أن تعيدي حسابات قلبك.

Twitter: @ketab_n

كثيفاً كان الصمت الذي خيّم علينا بعد ذلك، أظن أن السيد مختار كان يبحث عن مخرج لوقع ما قال، وما وقع على مسامعي يشبه أحجاراً ثقيلة تهاوت على صدري، سحب نفساً آخر من سيجارته وقال بحزم:

- حتى لو كان نجم من صلبي فلن أزوره، لا يمكن أن أزور القتلة، وهذه نصيحة لك يا ابنتي من يقتل مرة سيعتاد على القتل ومن يقتل أمه فقد تساوره الشكوك في سلوك زوجته ويقتلها· أرعبني كلامه ولابد أن يكون قد لمح حجم الرعب في عيني فقال لكي يخفف عني:

- الحب يا ابنتي علاقة مشروعة ومن يسكن الحب قلبه لا يمكن أن يخدش قلب الوردة، وإذا لم يستطع الحب أن يغيّر نجم فلن يعيد القتل له صوابه·

حملت أحجار صدري واستأذنته بإحساس من تعرّض لخيانة وعليه مرغماً أن يتذوق مرارتها، لكن قبل أن أخطو خارج مكتبه قال:

- كان لدي موضوع مهم أردت أن آخذ رأيك فيه لكن يبدو أن الوقت غير مناسب لذلك حينما تكونين مرتاحة سنتكلم فيه·

التفت إليه وعادت خطواتي بالتراجع وقلت:

- يمكنك الاعتماد عليّ يا سيد مختار فأنت مثل أبي·

شعرت بملامحه تلين بعد أن كانت مشدودة، وجلست ثانية أصغي لما يريد أن يخبرني به، وما أخبرني به في تلك الزيارة كان المفاجأة الثانية لي:

Twitter: @ketab_n

- أتمنى أن أعيش بقية عمري مع أمك فأنا أحبها من كل قلبي وهي سيدة محترمة ومن النادر أن توجد امرأة مثلها في هذا الزمن الصعب، لقد ترملتُ منذ خمس عشرة سنة وأنا رجل مقتدر يمكنني تحمل المسؤولية.

ألقى كلماته دون أن يتحرك فكه من مكانه، ربما شعر بأنه تسرّع بالبوح لي فاستدرك:

- الحب شعور لا يمكننا تجاهله لكن المهم أن يكون برضا الطرفين وأنا لا أعرف رأي امك ولا أمتلك الشجاعة لطلب الزواج منها، فهل بالإمكان أن أستعين بك لمعرفة رأيها دون أن تعرف أنني حدثتك بالأمر لأنني لا أريد أن أخسرها كصديقة إذا رفضت الزواج؟

قلت بعد أن استعدتُ ملامح وجهي من انفعالها:

- سأحاول يا سيد مختار.

لا أدري كيف وصلت إلى البيت، غمامة ثقيلة سقطت على عيني، فالشوارع ليست هي الشوارع والشجر اكتسى بلون ترابي كأنه خرج للتو من عاصفة ترابية، سألتني أمي حالما دخلت البيت عما بي، قلت لها إن إحدى صديقاتي في الجامعة توفيت وعرفت الخبر من صديقة مشتركة صادفتها في المكتبة، وهممت بالصعود إلى غرفتي لكن أمي استوقفتني.

عندما يموت إنسان وهو في سن الشيخوخة يقولون: إلى رحمة الله، ولكن حينما يموت وهو شاب فلابد من طرح السؤال: كيف مات؟ لذلك سألتني أمي: كيف ماتت صديقتك؟ فقلت على الفور كما لو أنني توقعت سؤالها: دهستها سيارة..ومضيت إلى غرفتي، تتشابك الرؤى والتساؤلات في رأسي،

Twitter: @ketab_n

لماذا فعل نجم ما فعل وكيف ستذوي زهرة شبابه في السجن وهل سيأكله الندم على ما فعل أم يغمره الهدوء ويشعر بأن جمرة قلبه التي ظلت مستعرة لسنوات قد انطفأت؟ هل سيتذكرني وهل عليّ الذهاب إليه ومواساته؟ كانت ليلة مؤرقة تناهبتني فيها الأفكار والتساؤلات، كلما طردت وجه نجم من رأسي عادت إليّ ذكراه، أتقلب في الفراش على اليسار وعلى اليمين وعلى الظهر وأنزل من السرير لأتطلّع عبر النافذة إلى السماء باحثة بين نجومها عن نجم لا يستقر ولا يدعني أستكين،أعود للسرير وأدفن رأسي تحت الوسادة، ثم، بعد وقت لا أدريه أسقط في نوم مضطرب تتناهشه الكوابيس.

أرض جرداء مشوّكة ما لها حد، رمال على مد البصر تحركها رياح السموم فتغير أمكنتها أو تختفي، أرض لاقبل لي بها، أنظر إلى المدى البعيد المغبر الذي لاينتهي إلا عند نقطة في السماء فلا أرى أبنية ولا بشراً ولا حيوانات، لم يساورني الخوف أبداً، أشق الصحراء وأمواج الرمال تتسيّد المشهد وتطيّر العاقول المتيبّس، عن بعد يخاتلني السراب، يقترب ويبتعد، تتسرب الحرارة من الأرض الساخنة الفائرة إلى حديد السيارة الذي يكاد ينصهر إلى قدميّ، أية وحشة وأي مكان هذا الذي أنا فيه؟ تهدر السيارة وتغوص في الرمال، أخرجها بصعوبة لأواصل السير، أنا التي أقودها، يا للعجب، من أين واتتني كل هذه الشجاعة لأغامر في رحلة غير محسوبة العواقب؟ ماراثون آخر وهذه المرة على عجلات قد تتوقف في أية لحظة، هدير السيارة يتواصل، أقودها إلى الأمام دائماً، ليس من دليل ولا أحمل خارطة، قد يكون الأمام باتجاه الشرق أو الغرب أو الجنوب وربما شمالاً، وبعد لهاث ودخان لا أدري من أين يخرج أرى أو يُخيل لي أنني أرى ما يشبه البناء، أراه كنقطة نائية، وكلما مضيت يصعد البناء قليلاً كأنه نبات

Twitter: @ketab_n

يخرج من عمق الصحراء، فجأة تهب ريح عاتية فتغطي الفضاء بالغبار، موجات وزوابع من التراب البرتقالي المحمر فيمّحي البناء وتتوقف السيارة، قد أكون أوقفتها حتى تنجلي عاصفة الغبار، عاصفة تصرخ كأنها امرأة تعول، وحين انجلت لم يكن للبناء الذي رأيته أي أثر كما لو أن العاصفة اقتلعته من الأساسات، أقرر مواصلة الطريق فلا تستجيب عجلات السيارة، أنزل وأكتشف أن إطاراتها غاصت عميقاً في الرمال، الشمس متعامدة، الهواء الحار يسوط الرمال ويسوطني، أتعرق وأحس بلزوجة على جسدي، أقف طويلاً باحثة عن مخرج لهذه الورطة، أنصهر في الحرارة اللاهبة، وفجأة أسمع أصواتاً بعيدة ترمي صداها وتقترب رويداً، أصوات تعوي فأدرك أنها ذئاب، ومثل ما رأيت ذلك البناء كنبات يخرج من الأرض فإن رؤوس الذئاب خرجت من الاتجاهات جميعها وليس ثمة عاصفة تنأى بها بعيداً عني، أمسك مقبض الباب لأعود وأحتمي داخل السيارة لكن الباب لا يطاوعني والذئاب العاوية الهائجة الجامحة الكاسرة تقترب بسرعة عجيبة، أراها مكفهرة مكشرة عن أنيابها ومخالبها، أركض باحثة عن مخبأ، تغوص رجلاي إلى العمق ثم تخرج كأن قوة في أعماق الأرض تعيدها إلى السطح، أواصل الركض فتسقط عيناي على حفرة صغيرة أقفز داخلها وأدفن جسدي تحت الرمال وأشعر بأنني أختنق وأحترق.. أختنق حد أن أنفاسي تكاد تتوقف وتلسعني نار لا أرى لهبها لكنني أحس حرارتها الكاوية فأشهق.. وأفز من ذلك الكابوس وأمرر كفي على وجهي كأنني أزيح الغبار الكثيف الذي غطاني، وأكتشف أن جسدي كله مبلل بالعرق وأن جفنيّ ثقيلان وعظامي مهشمة.

وجاءت ليالٍ أخر، بكوابيس لا تنتهي، ونهارات لم ألمس فيها قطع القماش، كأنني مشلولة اليد، كنت مشوشة حين دخلت أمي ووقفت عند باب

Twitter: @ketab_n

غرفتي، نظرت إليّ ملياً بابتسامة مغتصبة ما لبثت أن ذوت على شفتيها قبل أن تقول: متى تخرجين من صومعة الأحزان؟ أما يكفي أننا خسرنا صابرين؟ كادت دموعي تتفجر من عيني لكنني لجمتها ولم أنظر إلى عيني أمي التي واصلت الكلام: لا تجعلي من قلبك موقد ناروتحرقي زهرة شبابك بالأحزان، سيأتي علينا الدور ونموت كل في ميقاته، قالت ذلك وخرجت من الغرفة مهمومة عندها شعرت بأنني أتمادى في أحزاني وعليّ أن أفرمل مشاعري، وتذكرت كلام السيد مختار: من يقتل مرة سيعتاد على القتل، ومن يقتل أمه فقد تساوره الشكوك بسلوك زوجته ويقتلها.. وما دام نجم لم يُقم وزناً للحب الذي بيننا واختار طريقاً أودى به إلى التهلكة فليتحمل وزر ما قام به، لذلك أنهيت عزلتي واعتذرت لأمي، قلت لها بأنني سأعود إلى العمل، ووعدت نفسي بأن أزيح عن صدري كل الأحجار الثقيلة وأواصل الحياة بقلب مفتوح على الدنيا، لكن ذلك تطلّب وقتاً ليس قصيراً، عدت خلاله إلى العمل بنصف طاقتي ثم شيئاً فشيئاً أستعادت أصابعي حيويتها.

**

Twitter: @ketab_n

عند العصر كنا قد أخذنا استراحة من العمل، دخلت هند إلى المطبخ لتعد الشاي فكانت فرصة أن أطرح على أمي السؤال بعد تمهيد سريع: العمل مرهق يا أمي، وأنا أتساءل أحياناً لماذا تعمل امرأة مثلك بهذه المهنة المجهدة ولا تفكر بالزواج من رجل مقتدر يصرف عليها وعلى بناتها؟ رمتني بنظرة جعلتني أشعر بالندم على طرح هكذا سؤال وقالت: عندما كنت متزوجة من ياسين لم يصرف علي وعليكن الا النزر القليل ثم كفّ عنه، فكيف آمل أن يفعلها رجل غريب؟ وكيف آمن عليك وعلى هند منه؟ إذا كان العم قد تحرش بابنة أخيه فماذا سيفعل الرجل الغريب ببنات زوجته؟ وأراحتني ابتسامة سريعة على شفتيها قالت بعدها: المهم عندي الان فراشات قلبي.. ما تزال أمي تجمعنا فتقول فراشات على الرغم من أننا أصبحنا اثنتين، يبدو أنها لا تريد أن تصدق في قرارة نفسها أن صابرين لم تعد معنا.. ماذا عنك يا أصغر الفراشات؟ لم أتفاجأ بسؤالها ولم أتلعثم، قلت: هند أكبر مني، وأنا لا أنوي الزواج قبلها، ثم أنني لم ألتق الرجل المناسب بعد.. كانت نظرتها العميقة لي في تلك اللحظات قد أخبرتني أنها تعرف خبايا نفسي لكنها تؤثر الصمت لعلني أفتح لها باب قلبي وأفضي بأسراري، ابتسمت وهي تمسك يدي، همّت بالكلام لكن هند دخلت تحمل صينية الشاي فتغيّر مجرى الكلام، حيث قالت أمي بعد أن رشفت قليلاً من الشاي: شوفوا يا بناتي، قررت أن نشتري حصة محمود من بيتنا القديم، كان خالي ابراهيم قد أخبر أمي بأن محمود مرّ عليه ويرغب بأخذ حصته لأنه ينوي ترك البلد إلى غير رجعة، وقالت أمي مادام لنا حق شرعي فلماذا نتركه، إلى متى نبقى بالإيجار ومن فترة لأخرى يزيدون المبلغ علينا؟ تركنا الأمر لها مع صوت جرس الباب، مضيت لأفتحه فكانت السيدة علياء التي ربطتنا بها علاقة طيبة بعد حادثة انتحار صابرين، جاءت تحمل صحناً كبيراً من الكليجة، وفي تلك العصرية طلبت السيدة

Twitter: @ketab_n

علياء يد هند لابنها سامي المحاسب في أحد البنوك، شعرت هند بالارتباك، شع فرح خفي في عينيها واصطبغ وجهها بحمرة خفيفة، ثم تسللت إلى المطبخ، يقال كل شيء يمكن إخفاؤه إلا الحب، هذا ما كان يلوح على وجه وسلوك هند منذ الأيام الأولى التي انتقلنا فيها إلى العطيفية، لكنها كتوم مثل أمي أو يحلو لها أن تتشبه بأمي حتى في صفة الكتمان، وكنت أعرف أن هند واقعة في الغرام لكنني لم أجرؤ على سؤالها فهي إن أرادت أن تبوح بشيء فلن يعترضها أحد وإن لم ترغب بذلك فلا من أحد له سلطان عليها إلا أمي، وكنت أنتظر اللحظة لكي تخبرني هند عن هذا الذي أسهرها وانشغلت به لكنني لم أكن اتوقع أن يكون هو سامي.

طلبت أمي من السيدة علياء وقتاً لتفكر بالأمر وتتشاور مع هند، كان لابد أن يأتي هذا اليوم، قالت أمي مبتسمة برغم مسحة الحزن على وجهها، لم تستطع هند إخفاء مشاعرها عندما شاورتها أمي بالأمر بعد خروج السيدة علياء، وبدا لي في تلك اللحظة أن أمي كانت تدرك أن قلب ابنتها البكر يخفق بالحب لابن الجيران الذي رأت فيه هي وهند ما لم أره فيه، ثمة إحساس خفي لا أعرف سببه جعلني أتردد في قبوله زوجاً لأختي، ربما نظرة عينيه القلقة أو طريقته المتسرعة في الكلام أو شيء آخر استعصى عليّ فهمه في تلك الأيام، لكنني لم أعلن ذلك الإحساس فقد أكون على خطأ.. كثيرة هي الأشياء التي خانني فيها الإحساس فاعتقدت بشيء واتضح بأنه شيء آخر.

**

Twitter: @ketab_n

بعد أيام مضيت إلى السيد مختار وأخبرته بموقف أمي من الزواج، قلت له، وهذا من عندي ليتقبل الأمر ببساطة: إن أمي وفية لذكرى أبي ولعهد قطعه كل واحد منهما للآخر وأقسما عليه أن لا يتزوج أحدهما إذا توفي الثاني.. وجدت من السيد مختار تفهماً وكرر علي أن لا تكون أمي قد عرفت بمشاعره نحوها فقلت له اطمئن يا سيد مختار.

هو ولست أنا هذه المرة من بدأ الكلام عن نجم قائلاً: علينا أن ندرك أن الحياة لم تعطنا كل ما نتمنى ولذلك يا ابنتي أنصحك بنسيان نجم، النسيان نعمة من الله لكل الأشياء المحزنة في الحياة، وعندما قلت له بأن النسيان صعب، أسرع للقول: لكنه ممكن، ابحثي عن وسائل أخرى لتغيير نمط حياتك وسترين بعد فترة أن البوصلة تتجه لصالحك وستدلّك على منابع أخرى للحياة.

عند هذا الحد شعرت بالتعب فتركت الأوراق ريثما أستريح ودخلت المطبخ، سخّنت قليلاً من الحليب وشربته على مهل، أحس بأرواح كثيرة تحوم من حولي، أمتلىء بها وأستمد منها الصبر على وحدتي، أدنيها كلما ابتعدت، وأتنقل بين ظلال الوجوه التي تمر على ذاكرتي، وجه أمي ووجه صابرين ووجه السيد مختار ووجه الرجل الذي غاب وراء القضبان في صحراء السماوة ووجه السيدة علياء، بينما طردت وجه سامي إلى حين، لا أريد أن أعود إلى شيء دفنته داخل أعماقي، إن ذكراه في هذه اللحظة توجع قلبي، أعرف بأنني سأعود إليه في أوراقي ولكن ليس الآن.. سآخذ استراحة وأدع الأوراق تستريح أيضاً فقد تكون قد شعرت بالتعب مثلي.

قريبتنا فاطمة التي تسكن في الجوار والتي ستعينني وتشد من أزري في قابل السنين كانت تشتغل في معمل خاص بخياطة ألبسة الأطفال،

Twitter: @ketab_n

تعرّض صاحبه للخسارة فأغلقه، بعد أن انتهت أيام العزاء ظلت تتردد علينا وتعرض المساعدة، وجدت أمي في فاطمة الرغبة بالعمل دون أن تحدد أجرة عملها، ربما أرادت أن تتعلم المهنة، فكانت أمي كريمة معها في الأجرة وفي تعليمها أسرار فن الخياطة، عهدت إليها أول الأمر بالأشغال البسيطة مثل تثبيت الأزرار وكف ذيل الفستان والأكمام والدرز والكي، وواصلت أنا العمل بهمة ورغبة لم أكن أدركهما بي من قبل، ووجدت أمي مني حماسة غير مسبوقة وصبراً ليس من طبيعتي، أتقنت الغرزات الناعمة وصف خرزات النمنم في مكانها مهما كان صغر حجمها، جلستُ مطولاً مع هند قبل زواجها وانشغالها بحياتها الجديدة وتعلمت منها طريقة عمل الورود من القماش وتطريز الفراشات، تعاملت بحذر مع بعض الأقمشة التي تحتاج إلى عناية خاصة مثل الجورجيت والساتان والحرير الصناعي، تعلمت استخراج الباترون من المجلات من دون أخطاء ومن أمي كيفية تحوير الموديلات بإضافات جديدة.. يا لهذا العالم الملون بالخيوط والفصوص والشرائط والورود والتطريزات العجيبة.

عملنا بجهد مضاعف استعداداً لحدثين، زواج هند والانتقال إلى البيت القديم الذي تنوي أمي ترميمه وإعادة الحياة إليه حيث لاحظت بعد أول زيارة لها للبيت أنه يحتاج إلى جهد ومال من أجل أن يكون سكناً لائقاً بعد الإهمال الذي طاله في السنين الماضية، وحكت لنا كيف أنها وجدت الحديقة ميتة ولم يبق منها إلا بضعة أشجار تقاوم من أجل الحياة أما البيت من الداخل فلم تدخله بعد.. سندخله أنا وإياها.

**

Twitter: @ketab_n

انتهينا من الحدث الأول بكل متعلقاته، خياطة بدلة العرس وإكليل الرأس وأربعة فساتين اشتغلنا عليها ساعات طويلة أما الألبسة الداخلية ونفانيف النوم فقد اشترتها أمي جاهزة، تبع ذلك انشغال أمي مع أم سامي وهند وخطيبها لاختيار غرفة النوم والملاءات وطاقم الذهب الذي شمل خاتم الزواج والقلادة والسوار ومن ثم أقيمت حفلة الزواج بقاعة في فندق السدير، بعدها تفرغنا لبيتنا القديم، كانت الإجراءات الرسمية قد اكتملت وسافر محمود في اليوم الثاني بعد أن استلم مستحقاته، ودّعنا وتمنى لنا حياة هادئة فقالت له أمي: اتمنى أن تفكر جدياً بحياتك القادمة ولا تتيه في بلاد الغربة.

رافقت أمي في الزيارات التالية للبيت، في أول زيارة لي معها فتحنا الأبواب المغلقة واحداً واحداً فأحدث فتحها صريراً مزعجاً، قالت أمي يجب أن نزيتها ليختفي الصرير، ونغير جميع الأقفال والمقابض ونضع مزاليج جديدة للباب الخارجي ونعيد طلاء الغرف ونرمم الواجهة، لايمكننا الانتقال إليه وهو بهذه الحالة المزرية، ربما نحتاج إلى خمسة أشهر أو أكثر لكي نعيد إليه الحياة، ومن الأفضل أن نعهد إلى أحد العمال ليرممه وإلى أحد الفلاحين ليعيد زراعة الشجيرات وشتلات الورد، كان البيت فارغاً من الأثاث، يبدو أن محمود باع كل قطعة فيه ولم يبق إلا كراكيب السرداب، كلما فتحنا غرفة داهمتنا رائحة هواء فاسد وكانت أمي تقف على عتبتها وتنظر إلى كل زاوية فيها كما لو أنها تستذكر الأحداث التي رافقتها، كانت الغرف جميعها مغلقة النوافذ فكانت أمي تدعوني إلى فتحها ليتجدد هواؤها، وصعدتُ إلى غرفة البنات وحدي، دفعت بابها ودخلت، الجدران خاوية ولونها البنفسجي استحال إلى لون أقرب إلى الرمادي المغبر، تأملت الزوايا والسقف وتناهت إليّ كركرات وضحكات

Twitter: @ketab_n

تنطلق من الزوايا لثلاث بنات صغيرات يتقافزن على الأسرّة، أوقفتها أمي وهي تناديني من الطابق الأسفل.

عملت أمي بجهد استثنائي، توزعت مشاغلها بين ترميم البيت الذي أخذ وقتاً أكثر مما كنا نظن وبين الخياطة والمتاعب التي رافقت حمل هند ثم تعرضها للإسقاط، وبمرور الوقت لاحظتُ ذبول وجه أمي، لم تعد بذلك الألق الذي كانت عليه، ظهرت هالات سود تحت عينيها وبدت شفاهها جافة، كانت تشعر بالعطش طيلة الوقت، لم تعد تعتني بتطرية بشرتها بالمرطبات كما كانت تفعل، حتى شهيتها للطعام بدأت تفقدها رويداً، صارت تحس بالوهن يسري في أعضاء جسدها بعد ساعة من العمل في الخياطة هي التي كانت تعمل ساعات طويلة دون كلل، لم تعوض فاطمة ما تركته هند من فراغ بعد زواجها لكن المرأة لم تقصر، تفعل ما بوسعها وتريد أن تتعلم المهنة لذلك تجتهد أمي من أجل ذلك، طلبتُ من أمي أن تستريح من العمل وقلت لها يمكننا أن نعوض جهدك خلال فترة الاستراحة خصوصاً وأن هند لم تنقطع تماماً عن العمل بعد زواجها وتعمل ساعتين كل يوم، لكن أمي كانت ترد بابتسامة من يريد القول: لا أحد يعوض ما تصنعه أصابعي.. لاحظتُ أيضاً أن حركة أصابعها صارت ثقيلة يداهمها الارتعاش غير الإرادي من حين لآخر، ولم تعد عيناها تميزان خرم الإبرة إلا بصعوبة، حتى ترميم البيت لم تستطع متابعته بالهمة ذاتها فأجلنا فكرة الانتقال إليه ريثما تتحسن صحة أمي ونكمل الترميمات، لكنها اعتلّت أكثر من السابق ولم تتحسن، صار نومها ثقيلاً، تقوم متكاسلة من الفراش وعيناها متعبتان كأنها لم تنم طيلة ساعات الليل، ثم صارت لا تستيقظ إلا بعد ان أذهب اليها وأوقظها، وذات صباح لم تنهض أمي، لا من تلقاء نفسها ولا من مساعدتي لها على النهوض، شباك

Twitter: @ketab_n

غرفتها مفتوح ونسيم الصباح يحرك ستارتها الوردية بخفة، والشمس تسقط على سريرها وتغطي نصف جسدها الأسفل، اقتربت منها، عيناها مفتوحتان فظننت أنها فتحتهما للتو، ألقيت عليها تحية الصباح فلم ترد، كانت عيناها مفتوحتين باتجاه الشباك، ثمة فراشات ملونة تطير قريباً من حافة الشباك من الخارج، فراشات زرقاء وبرتقالية مخططة بالأسود، لم تتحرك عيناها، لم يتحرك أي جزء من جسدها، لون بشرتها شاحب بطريقة غريبة وشفتاها منفرجتان قليلاً كأنها همّت بقول شيء لكن ملك الموت لم يمهلها.

**

الملاية التي جاءت من حيث لا أعرف فجرت أعماقي بسيل الكلام الموجع، لم أكن قد رأيتها في المحلة من قبل أو ربما لم أكن قد انتبهت لوجودها، امرأة أربعينية بدينة ترتدي السواد من قمة رأسها إلى قدميها المدفونتين بالجوارب السود، تنطق بكلام يمزق القلب وتعود بأمي من قبرها إلى لحظة موتها على السرير وفجيعة بنتيها اللتين أصبحتا يتيمتين، ثم تعيدها إلى القبر مع الملائكة، وتخرجها ثانية بنواحات جنائزية كأن الدنيا لا وجه لها إلا الفجائع، تغلق كل نافذة للأمل وتفتح المناحات من أوسع أبوابها فتصرخ النساء بحرقة، تحاول بكل ما ملكت استدرار الدموع من أعين النساء على الرغم من أنها لا تحتاج إلى كل هذه المناحات لكي تبكيهن، فكل واحدة مهيأة لكي تستحضر فجائعها وتبكي موتاها ولا علاقة للدموع المدرارة بموت أمي التي لا يعرفنها حق المعرفة.

انتهت أيام العزاء وبدأت لوعة الفراق بعد أن انفض جمع النساء النواحات، أضاءت هند لروح أمي الشموع، جلسنا وحيدتين نبكي بصمت

Twitter: @ketab_n

ورأسانا محنيان لا نواجه بعضنا لئلا تنفجر أنهار عيوننا، في النهارات أرى أمي تخطف في الممر أو تشذب ورود الجوري وتقطف ورود القداح لتضعها في صحن على المائدة، أو أراها تجلس وراء الماكنة وترمي ابتساماتها لنا من حين لآخر، وأكاد أسمع صوتها يأتي من غرفة الخياطة مرة ومن المطبخ مرة، وفي الليل عندما تذهب هند إلى بيتها يحاصرني وجه أمي فيعز عليّ النوم وتحوم من حولي الفراشات المضيئة، أجنحتها تخفق في صدري، أجنحة عليها ما يشبه العيون، أجنحة عنابية بخطوط بيض أو وردية شفافة، وأخرى برتقالية يحيطها الرمادي، وثالثة صفراء مخدّدة باللون الفيروزي، وكل أنواع الفراشات التي كانت ترسمها أمي على الورق وبرعت في تطريزها هند ومن ثم انتقلت المهمة لي، أمي هي التي نبهتني إلى جمال الفراشات عندما كانت ترسمها على الورق وتنقلها إلى صدور الجلبيات والتنورات والعباءات، تطرزها بالألوان الزاهية التي لها في الطبيعة، وغريب أن أنتبه إلى أن عدد الفراشات صار يزداد في الحديقة بعد وفاة أمي كأنها أبت إلا أن تكون قريبة مني ومن هند حتى بعد رحيلها وإن كان قربها منا خاطفاً أو على شكل فراشات تحلق وتحط على شجيرات الورود، كانت مشاعري متضاربة في رؤية فراشات الحديقة، فمرة تبهجني بألوانها ودقة خطوطها وجمالها، ومرة تثير في نفسي الحزن فتخرج حسرات صدري على شكل آهات وأسقط في البكاء، تارة أكلمها ليقيني بأنها توصل رسالة لي من أمي البعيدة الراقدة في اللازمان، وتارة أتابع رقصها ورفرفة أجنحتها وهي تحط على القرنفل والجوري وأكاد أسمع وقع أغانيها في روحي اللائبة.. لقد كانت أمي سندي وبعد رحيلها لم يعد لي من سند.

Twitter: @ketab_n

في ليالي الأرق صرت أستعيد وجهها وأراه أوضح مما كنت أراه عندما كانت قريبة مني كل تلك السنين التي رافقتها فيها، أرى الشبه الكبير بينها وبين عفيفة اسكندر، أرى ابتسامتها المعجونة بحزن دفين وكيف كانت تلوذ بالصمت وراء ماكنة الخياطة لتبتكر طرقاً جديدة للحياة من أجل الحفاظ علينا نحن بناتها الثلاث.

هل أكملُ عباءتها الأخيرة أم أتركها لتبقى محتفظة بروحها حيث تركتها؟ عباءة قاتمة الزرقة، الرقبة مزدانة بقصب بلون بحري متدرج من الزرقة الغامقة إلى الفاتحة إلى البياض، مكسمة حتى الخصر ومنسرحة إلى القدمين، تحط على تنورتها الفراشات الصغيرة بلون أخضر مصفر، في ذيل العباءة سفيفة يصطف عليها القصب الأزرق البراق، السفيفة لم تكتمل وكذلك إحدى الفراشات، إذا فكرتُ بإكمال العباءة فعلى أصابعي أن تمشي بحذر شديد لئلا تطير الفراشات من أمكنتها، ولكي تبتسم أمي ابتسامة رضا من مكمنها البعيد.

**

لابد أن نواصل الحياة في الزمن الصعب، هذا ما كانت تكرره أمي علينا في حياتها بعد انتحار صابرين، وهو أيضاً ما عملتُ به مع هند التي عادت للعمل بساعات إضافية إكراماً لروح أمي وإن كان بقدر أقل وبوقت أطول، عليّ بالصبر، العلاج الناجع للأزمات والمصائب الكبيرة، وليس أمامي سوى مهنة أمي، منها أتجرع الصبر قطرة قطرة، صرتُ أعمل على القماش متوسلة بتلك الروح التي كانت لديها، أن أحس بالنسيج كأنه كائن يتشكل بحب العمل، أختار تدرجات الألوان لكي يتناسق الثوب،

Twitter: @ketab_n

أطرز الفراشات التي صارت هند ترسمها وأحس بقداسة تلك الكائنات الجميلة على الثوب الذي أمنحه الحياة ويمنحني الصبر على مواصلتها.

السيدة علياء كانت الأم الرؤوم، تجلس معنا وتحكي لنا عن حال الدنيا التي لا تدوم إلا بالعمل الصالح، وظل السيد مختار متواصلاً معي، يتصل بي تلفونياً، ويحثني على العمل، كان الأكثر حزناً بعد أحزاني وأحزان هند، والأكثر كرماً أبوياً معي بحنان غير مشروط حتى تمنيت لو كانت أمي قد تزوجته أو لو كان القدر قد جمعه بأمي قبل ان تتزوج من أبي، كلما تعرفت على السيد مختار زاد احترامي له، ربما كان يشعر بحرج من اعوجاج فمه فأراد ذات مرة أن يبين السبب فأخبرني في سياق الكلام بأنه تعرض لحادث إطلاق نار لم يكن هو المقصود به فطالته رصاصة على الفك وتركت له هذا الخلل، لكنني لم أعد أرى ما يسميه خللاً وإنما جوهر الإنسان فيه، ولأنني رفضت قبول المساعدة المالية منه والتي بررها بمواصلة مشروع أمي، وأقسمت له بأن أمي تركت لنا ثروة، فقد اقتصر على النصيحة المتواصلة من أجل العمل، وهذا ما عملت عليه بمساعدة فاطمة، وهند أحياناً التي بدأت عليها أعراض الحمل الثاني في هذا الوقت، والتي اقترحت عليّ بعد مدة أن تعيش وزوجها معي لسببين كما قالت، الأول لكي لا أبقى وحيدة في الليل وأصبح هدفاً للّصوص، والثاني لتتاح لها أكبر فرصة للعمل في الخياطة أثناء ساعات غياب سامي في عمله، أنا من ناحيتي راودتني شكوك، فهند لا يمكنها طرح فكرتها عليّ ما لم تكن قد ناقشت الأمر مع زوجها، وربما يكون هو من طرح الفكرة عليها، أنا لا أشك بنوايا هند ولا أجزم بنوايا سيئة يخبؤها سامي إلا أن هواجسي منعتني من القبول وقلت: هكذا أفضل أريد أن آخذ حريتي في البيت، تعرف هند أنني أرتدي الملابس القصيرة وأحيانا عارية الصدر

Twitter: @ketab_n

داخل البيت ويطيب لي أن أتمدد في الصالة أو في أية زاوية من البيت أو أخرج من الحمام لافة جسمي بالمنشفة ووجود رجل حتى وإن كان زوج أختي سيخنق حريتي، لذلك تفهمت اعتذاري، كان الأمر صعباً عليّ حين وجدت نفسي بمواجهة الجدران والذكريات المريرة، إلا أنني عودت نفسي عليه شيئاً فشيئاً، صرت أعمل بساعات أطول وقلما آخذ راحة في ساعات النهار لكي أسقط في النوم ليلاً ولا تراودني الأشباح أو أفكر باللصوص، خصوصاً وأن حمل هند كان مرهقاً منذ بداية تشخيصه وتحتاج للراحة لكي لا يتكرر الإسقاط، لذلك تعذر عليها مساعدتي لوقت طويل، السيدة علياء اعتنت بها كثيراً مخففة عني ما جعلني أتواصل بعملي، وفكرت في هذه الفترة بإكمال ترميمات البيت ومن ثم تأجيره إلا ان ما حدث لي مع سامي غيّر رأيي بالنسبة للتأجير، مساحة الورق التي سأفردها له ستؤلمني إذ تعود بتفاصيلها.. وفي هذا الوقت بالذات تعرض خالي إبراهيم إلى ما لم يكن بالحسبان، وجعلني أستذكر ذلك الدعاء المتهور أيام مراهقتي بأن يبتر الله له يده، لقد شعر بدوخة أثناء العمل وسقط على الماكنة التي يعمل عليها في مصنع النسيج فبترت يده، لماذا استجاب الله لدعائي بعد كل هذه السنين، أما كان عليه أن يعرف أن أهواء قلبي ونواياه قد تغيرت؟

**

Twitter: @ketab_n

بمرور الوقت خفّت الأحزان وصارت تمس قلبي ولا تحفر فيه عميقاً فتشلني، رحت أستذكر أمي بقليل من الحزن وكثير من السلوان وأقول لنفسي مساعِدة إياها على النسيان بأن كل ما يمر بنا ويمضي هو مرحلة، بناسها وأحداثها، أبي وجدتي مرحلة، وجود أمي في حياتي مرحلة، حياة صابرين القصيرة مرحلة، نجم أيضاً مرحلة من مراحل حياتي، توهّج وانطفأ، وما دامت السماء محتشدة بالنجوم فسيظهر نجمي ذات يوم، هو الذي يدلني عليه ويشير إليّ بيديه لأتبعه إلى منابع الضياء، وفي هذا الوقت سعيت لتغيير اسمي رسمياً من كفى إلى ريام، لا أدري لماذا لم أفكر بالأمر في حياة أمي، ونسيته هي تماماً لأننا لم نستخدمه في التعامل اليومي، تقدمتُ إلى محكمة الأحوال المدنية بطلب تحريري لتغيير الاسم، نشرت المحكمة الطلب في إحدى الصحف المحلية لئلا يكون هناك من يعترض على تغيير اسمي.. من سيعترض سوى أبي وجدتي الميتين، إن كانا حقاً يعرفان فسيموتان ثانية من الغيظ؟ وبعد عشرة أيام تم لي ذلك وغمرني شعور بأن أمي تبتسم في قبرها.

وما دمت أكتب الآن عن تلك المراحل فلابد لي أن لا أنسى ذلك اليوم الذي نغّص عليّ حياتي وسممها وجعلني أهجر البيت المستأجر وأعود للبيت القديم، فقد اجتمعنا ذات ظهيرة جمعة، أنا وهند وسامي وفاطمة والسيدة علياء التي حملت قدر الدولمة للغداء، ثم قمت لإعداد الشاي بعد أن انتهينا من أكل الدولمة فتبعني سامي، هل كانت شكوكي في محلها أم أن الأمر جاء سهواً؟ كنت أصفط الاستكانات داخل الصينية عندما دخل سامي ليضع بعض الأطباق في حوض الغسيل وإذا به يمسني بيديه الاثنتين، كاد قوري الشاي الذي لمسته يدي للتو أن يسقط لولا أنني تمكنت من الالتفاف ودفعته عن حافة المائدة وبيدي الثانية دفعت

Twitter: @ketab_n

سامي إلى الخلف بقوة وحملقت في عينيه غضباً فقال مبتسماً بأنه لم يكن يقصد وإنما شعر بدوخة مفاجئة ولم يسيطر على جسده، وخرج دون أن يعتذر، ناديت على فاطمة لتحمل صينية الشاي وجهدتُ لضبط مشاعري المضطربة، ثم دخلتُ وكأن شيئاً لم يكن، كان سامي قد خرج، قالت هند بأنه تذكر موعداً مع صديق له، قلت لنفسي هذا أفضل سيتيح لي التفكير بما حدث، وإذا ماكان قد حصل سوء فهم مني أم أن الأمر مبيّت من زوج أختي، لم لا؟ قلت لنفسي وأنا أعيد ذاك المشهد بعد أن خرج الجميع وبقيت وحدي، أطرح الحسابات والظنون وأتذكر ما حصل مع صابرين وأتساءل: ما هذا العالم الملوث، هل وصلنا إلى زمن ضاعت فيه المقاييس إلى هذا الحد بين ماهو حلال وما هو محرّم؟ العم يتحرش بابنة أخيه وزوج الأخت يشتهي أخت زوجته؟ كم أرقني الأمر، وكم رجوت الله أن أكون على خطأ، لم أنم ليلتها ولم تهدأ أسئلتي، رحت أذرع غرفة النوم ذهاباً وإياباً، أخرج إلى الصالة وأذرعها رواحاً ومجيئاً، أعيد المشهد وأخشى أن أضيف عليه ما ليس فيه، هل اعتذر سامي ولم أسمع أم صمت على فعلته ليكررها في وقت آخر؟

لكن الأيام التالية أخبرتني أنني لم أكن على خطأ للأسف، كنا انتهينا من العمل عند الخامسة عصراً، وكانت هند طيلة ساعات النهار عندي فالسيدة علياء سافرت إلى الحلة لرؤية اختها المريضة، استأذنت فاطمة وخرجت، وقبل أن تفتح الباب الخارجي رن جرس الباب رنتين متتابعتين وبالنغمة التي عرفتها من سامي، فتحت فاطمة الباب فدخل ومضت هي إلى بيتها، كنت في المطبخ ورأيته من النافذة فأعددت عصير البرتقال وجئت به إلى الصالة مع ثلاث كؤوس، جلست بالقرب من هند وتعاملت مع سامي بظنون حسنة، ولم أتعمد التركيز في عينيه لئلا تخيب ظنوني،

Twitter: @ketab_n

وأثناء ما كنا نشرب العصير سألته هند عن قضية الاختلاس في البنك الذي يعمل فيه وما استجد بشأنها، وكانت الصحافة قد تناولت في اليومين الماضيين ذلك الاختلاس الذي يعد أكبر من أية عملية اختلاس شهدها البنك، فقال سامي بأن المتهم فيها موظف ما يزال هارباً، بعد ذلك قامت هند لتقول: أظنني نسيت نسخة المفتاح في غرفة الخياطة، قلت لها سآتيكِ بها لكن هند ردت: لا تدلليني أكثر مما يجب، عليّ أن أتحرك لقد زاد وزني بعد الحمل.. وما إن تحركت حتى وضعني سامي وجهاً لوجه أمام نواياه السيئة، تفحص جسدي بعيون شرهة كأنه يعريني، لم يتأخر في الكشف عن دواخله الدنيئة، وقال: لماذا تسجني نفسك بعيداً عن متع الحياة، ألا تفكري برجل؟ ارتبكتُ للحظات ثم غاص نظري في عينيه لأرى حقيقة الذكر الذي بدأت أشم رائحته المحرّمة وقلت: ماذا تقصد يا زوج أختي؟ دائماً أذكّره بأنه زوج أختي، فهمس: أفكر بك كثيراً، كيف تقضين الليل؟ ضغطت على أعصابي وقلت مفتعلة اللامبالاة: لا تتعب نفسك، فأنا لا يساورني القلق، أهمد حالما أضع رأسي على الوسادة ولا يشغلني شيء، فردّ بعد أن سحب آهة وتأفف: أنت تضيعين أحلى أيامك وتبددين طاقة جسدك وراء الماكنة، ولا أظنك تعرفين شيئاً عن متعة الجسد، مرة واحدة أدربك عليها ستتغيّر حياتك.. ارتجفت أصابعي فوضعت كأس العصير على الطاولة وأنا مذعورة مما سمعت، احترق جسدي كأن سياطاً حارة انغرزت تحت جلدي، ولا أدري كيف تماسكت وكيف خرجت الكلمات من بين شفتي فقلت وأنا أركز عينيّ في عينيه: كم أنت نذل ودنيء يازوج أختي، لا أريدك أن تأتي إلى بيتي بعد الآن..تركته في الصالة لألحق بهند، كأن العالم انهار من حولي واختفت جمالياته وقيمه، التقينا في الممر، بصعوبة بالغة كتمت غضبي وداريت مشاعري أمامها، قالت ضاحكة: تصوري، المفتاح في جيبي وأنا أبحث بين الأقمشة، كنتُ

Twitter: @ketab_n

قد ضغطتُ على أعصابي أكثر مما يجب لكي لا تشي ملامحي بما جرى، وعندما خرجا شعرت بالغثيان وأنا أكرر مع نفسي ما قاله سامي وتفجّر بركان غضبي، وشعرت بأن أمعائي تتمزق، ثم تقيّأت سائلاً أخضر مراً كأنني أتقيّأ كل الكلمات التي سمعتها من سامي واقشعر لها بدني.. ولم أنم تلك الليلة، ضاق صدري وانغلق على أضلاعي فانكمش قلبي..لا أدري من أين خرجت أنهار الدموع وانسكبت على وجهي ورقبتي وعلى الوسادة، شعرت بحاجة ماسة إلى حضن أمي لأبكي فيه ولأصابعها تمسد شعري وتهدهدني، ومما زاد في ألمي أن ظلام الليل كان أشد حلكة، فلقد امتدت ساعات القطع الكهربائي إلى ما يقرب من الفجر فخرجت أشباح الليل وصار لها وجود مضخّم من حولي، اتسعت الوحشة وأحسست كم أنا وحيدة في هذا العالم، وفي اليوم التالي كان التفكير جدياً بالعودة إلى بيتنا القديم، لم أصارح هند بما حدث مع سامي لئلا أكون سبباً في خراب حياتها، وشككت هند بنواياي من الانتقال إلى البيت القديم وصارت تلح عليّ وأنا أطمئنها: لا تخافي، فقط أريد العيش في بيت العائلة وأتخلص من الإيجار وسأعمل بشكل أفضل لأنني أنوي أن يكون لي محلي الخاص إكراماً لروح أمنا، ولم أنس أن أشدد عليها بأنني لا أريد سامي يزورني في البيت لأن فاطمة ستعيش معي ولا نريد الأقاويل تسمم حياتها فتنقطع عن العمل..حتى تلك اللحظة فإن فاطمة لم تأخذ اقتراحي بالعيش معي على محمل الجد.. ثم جاء خالي في اليوم التالي متجهماً كأن أمراً جللاً قد وقع رفع يده الوحيدة وقال بصوت متحشرج: كيف لامرأة شابة مثلك أن تعيش بمفردها في هذا الزمن؟ قلت له بتحدٍ: هذا زمني ياخالي، سوف لا تضطر أن تكسر ذراع أحد، اطمئن عليّ واحرص على صحتك فأنت مريض.. كان خالي قد نحل كثيراً بسبب مرض السكري وما عادت له تلك القوة ولا تلك السطوة، تقاعد عن العمل منذ بُترت يده، وصار مثل

Twitter: @ketab_n

حصان السباق الذي شاخ ولم تعد له أية أهمية، مجرد قدمين ضعيفتين وعينين داهمهما الغواش ويد واحدة تساعده على قضاء نصف حاجاته.

وهكذا بدأت رحلة الانتقال التي ذكرتني بانتقالنا الأول من البيت القديم إلى السيدية، ثم الثاني من السيدية إلى العطيفية، ها أنا أعود إلى البيت الذي شهد خروجي إلى الحياة للمرة الأولى، وربما سيكون شاهداً على موتي أو يمنحني حياة أخرى.

بيتنا القديم قديم فعلاً، بناه جدي في أربعينيات القرن الماضي وحفر على واجهته تاريخ بنائه، ١٩٤٣، وكثير من البيوت في محلتنا تحمل تواريخ بنائها.. البيوت مثل الناس تتغير ملامحها بفعل الزمن، تشيخ وتفقد جدّتها وتبهت ألوانها وقد تتهدم وتموت، هذا ما رأيته ولمسته، ليس في بيتنا القديم فحسب بل في المحلة كلها، اختفت بيوت وقامت بيوت أخرى حديثة، وغزت الشيخوخة بيوتاً انثلمت أسيجتها وواجهاتها الأمامية فأصبحت آيلة للسقوط في أية لحظة، وبقيت بيوت تتصارع مع الأيام برغم انثلام أسيجتها، اختفى الحي الشعبي الذي كان يسكنه ريحان وأمه وأخته نجية، أصبح المكان ساحة ترابية مُحفرة وخلطة غريبة وغير متجانسة لبيع الخضار واللحوم المكشوفة وأكياس حلوى لا يُعرف منشؤها ومطاعم متنقلة على عربات، وأحذية وملابس مستعملة وأثاث قديم وسكراب ونفايات، أما بيتنا فقد حافظ على متانته بفعل الترميم الذي تم في حياة أمي وأكملته، ولم يبق سوى السرداب الذي ارتأيت أن أحوله إلى مخزن والحديقة التي سأعيد لها الحياة بعد أن جف كل شيء فيها، ماتت شجرة العنب وبقيت القضبان الحديدية شامخة وصدئة في

Twitter: @ketab_n

مكانها، وماتت شجيرات الجوري والقرنفل وليس من أثر لشجرة السيسبان وجف الآس ولم تبق ثمة حياة سوى لشجرة التوت ولشجرتي البرتقال والنارنج ونخلة أمي، هكذا كنا نسمي النخلة التي غرستها أمي في طفولتنا، في زيارتي الأولى مع أمي، قمنا بفتح الحنفية فجرى الماء في السواقي الصغيرة لإحياء آخر الأنفاس في الحديقة.

انتقلت للبيت في يوم حار من أواخر أيام حزيران، التمر في عذوق النخلة ما يزال خلالاً، يحتاج إلى الشهرين الناريين تموز وآب لكي ينضج تحت شمسهما الحارقة، وجئت بفلاح اقتلع الميت من النباتات بما في ذلك جذور شجرة العنب وابتاع لي غصناً جديداً راح ينمو مع الأيام ويتسلق القضبان التي لم تعد صدئة فقد قمت بطلائها بنفسي، عاد رونق الحياة إلى شجيرات الآس فالتمعت بزهرات بيض، وفي مكان كل شجيرة جوري وقرنفل حلت شجيرات جديدة من الصنف ذاته وحرصت أن تكون بذات الألوان التي كانت أمي تحبها، أحمر وأصفر وأبيض، وامتد الثيّل أخضر لامعاً تحت الشمس، فانتابني شعور بأن أمي تعود للحياة مع كل برعم يتفتح فلطالما كانت مهتمة بالحديقة وعاشقة لأزهارها كعشقها للخياطة، وفي الأوقات التي لا أدوّر فيها عجلة الماكنة يحلو لي أن اهتم بحواشي الحديقة وبنباتاتها وأستمتع بروائحها الشذية، أو نشرب الشاي أنا وفاطمة في الطارمة وأحكي لها بعضاً من حكايات بيت العائلة.

شعرت بالأمان في بيتنا القديم، وبأنني أعود لطفولتي وصباي، تذكرت في أول ليلة أقضيها متقلبة بين النوم والأرق حكاية الشبح الذي يظهر قرب شجرة السيسبان ثم يصعد إلى أغصان شجرة التوت فنزلت من السرير ورميت نظري إلى الظلام المخيم على الحديقة وإلى خطوط الضوء التي

Twitter: @ketab_n

تتخلله وتتلاعب الرياح بها فتخفيها مرة وتظهرها مرة ولم أجد للشبح أي أثر، هل رحل حينما رحل أهل البيت؟ أم أنه وجد سكناً آخر؟ أم أنه مات؟ وهل تموت الأشباح مثل البشر إن كانت موجودة حقاً؟ وتذكرتُ جدل أمي وجدتي بشأن الأشباح، تذكرت أيضاً كل شقاوتي، تسللي تحت سرير أبي، وطردي من المدرسة وعقاب أبي لي، وأدهشني أن ريحان، ذلك الفتى الذي تفجرت عواطفي البريئة نحوه في أول صباي يعود إلى ذاكرتي بقوة بعد أن طوته الأيام، كأنه عاد للتو من متاهاته البعيدة، من حزمات القصب والبيوت الطافية فوق سطح الماء ومن الصوابيط والدروب المائية المحفوفة بالحلفاء، غمرني شعور بالحنين إلى ذلك الطيش الجميل وأنا أتذكر مشاويري معه في المقبرة الإنكليزية، وتناهى لي صوته وهو يخبرني عن المس بيل وماذا فعلت بالعراق، وعن مود وتمثاله الذي أسقطته الجماهير الغاضبة، وتذكرت عزيزة التي كانت تثير غيرتي بشقرتها وغابات عيونها الخضر، ترى أين هي الآن؟ هل تحققت قناعتها وأصبحت ثرية لتنتقم من زوجة أبيها أم تراها غيرت قناعاتها بتغير الأحوال، وما هو الحال الذي أصبحت عليه الان؟

**

بعد أيام، في شارع النهر، بينما كنت أهم بالخروج منه، رأيت نجية اخت ريحان، لم أتعرف عليها للوهلة الأولى عندما نادت علي، لقد تغير شكلها وبدت أكبر مني وتوارى شعرها الكثيف وراء الحجاب، قالت أنا نجية فضربتُ كفي على جبهتي واعتذرت منها لأنني لم أتعرف عليها، وعرفتُ في تلك المقابلة التي لم تستغرق سوى دقائق أنها متزوجة من رجل يعمل ممرضاً في مدينة الطب، وأن امها فقدت البصر قبل سنوات وأصاب

Twitter: @ketab_n

قدمها اليمنى الشلل وتعيش معها في البيت الذي انتقلت إليه في البتاوين بعد أن أزيل الحي.. ثم صمتت كأنها تنتظر أن أسألها عن ريحان، وهو فعلاً ما كنت أفكر فيه، تواصلت نظراتنا للحظات، كل واحدة منا تريد من الأخرى أن تبدأ الكلام عن ريحان، لمحت في صمت عينيها حزناً عميقاً انتقل إليّ وهممت بالسؤال لكنها سبقتني وأخبرتني بأن ريحان أعدم بتهمة الانتماء إلى حزب محظور، شعرتُ بنصل حاد يخترق قلبي كأنني مازلت تلك الصبية التي تهيم بريحان، ولم أجد غير دمعتين سقطتا على خدي فتجاوبت دموع عينيها بالجريان.. وسألتها عن مكان قبره لأضع الزهور عليه وأدعو له بالرحمة فخرجت من صدرها آهة طويلة لتقول بعدها: ليس له قبر معلوم، أخذوا حتى الجثث لكي لا يصبح لقبورها مزار.

ومن أجل ريحان ذاك الفتى الذي خفق له قلبي في ذلك الزمن البريء غرست في الحديقة الخلفية بذور الريحان لتنمو وتضوع برائحتها الطيبة إكراماً لذكراه التي رحتُ أعمّقها في قلبي بزيارة المقبرة الانكليزية والوقوف مطولاً عند قبر المس بيل كما لو أنني على موعد مع ريحان، وفي أول زيارة لي للمقبرة بعد لقائي بنجية، وقفت عند قبر المس بيل، وقفت مطولاً أنظر إلى الزوايا، ورأيته هناك، يمشي على مهل، رأيت ريحان بعيون ذاكرتي، ومشينا معاً بين القبور التي يلفها صمت الموت الذي لا رجعة عنه، ثم خرجتُ دون وعي مني من السياج البعيد وليس من باب المقبرة كأنني سمعت صوت نجية ينادي كما في السنوات الخوالي: ريحان جاءنا ضيوف.

ترى ماذا كان سيحدث لو لم تش هند لأمي عن ريحان ولو لم يفعل خالي إبراهيم ما فعله عندما هرول إلى بيت أم ريحان وكسر ذراع ابنها الوحيد

Twitter: @ketab_n

فتسبب في هجرته إلى الجبايش؟ هل سيكبر الحب بيننا ونتزوج وأمضي معه إلى مدن الماء؟ أم أن خالي سيثور ويقول كيف تتزوج ابنة المدينة من ابن المعدان؟ لاشك بأن خالي سيعارض ومن المحتمل ستعارض أمي، لأنهما، خالي وأمي، لا يعرفان شيئاً عن تاريخ المعدان كما عرفته أنا بعد بحث طويل في أكثر من مصدر وتيقنت أن هذه الشريحة من الناس انحدرت من أولئك الأجداد الذين بنوا حضارة البلد، وضلوا مخلصين لطريقة عيشهم ومحافظين على طبائع وصلت إليهم عبر آلاف السنين.. كم أحببت براءة الحب الأول مع ريحان، وكم أشعر بأن العالم توحّش بعد ذاك الزمن الجميل، وكم أسعى لأحتفظ بمساحة للبراءة في قلبي برغم كل ما مررت به.

**

كل شيء بدا جديداً في البيت القديم بعد الترميم إلا السرداب، بكراكيبه التي تحتاج أياماً لكي اتخلص منها فأرجأت ذلك إلى يوم غير معلوم، خصصتُ غرفة أبي الواسعة للخياطة ورصفت الخزائن على حيطان غرفة أمي لحفظ الأقمشة وبكرات الخيوط وكل ما تتطلبه المهنة، مع عدد من المشاجب والقضبان للتعليق، وأبقيت على غرفة البنات في الطابق العلوي لتكون غرفة نومي.. في الليل أسمع صدى كركرات لثلاث طفلات تتحيّن إحداهن الفرصة لتتسلل إلى غرفة الأب وتختبيء تحت سريره، وأشعر قبل أن تروح عيناي إلى النوم بكف أمي تلمسني برقة متناهية وتهدهدني همساً، وفي الصباح، قبل أن أفتح عيني وأطرد نعاسها يخيل لي أن أمي تدخل الغرفة وتقول بصوتها الحنون: صباح الخير يا فراشاتي الجميلات، فتقفز صابرين من السرير قبلنا.

Twitter: @ketab_n

وبعد أيام لاحظت أن كلبة الجيران الحامل تتسلق السياج وتنزل إلى الحديقة من جانب الجهنمية التي ترمي أغصانها على سياج بيتي فغمرني شعور بالامتنان لهذه الكلبة التي يبدو أنها أدركت بحواسها الرهيفة أنني وحدي فأرادت أن تحرسني.

في الليل، عندما تهجع العصافير في أعشاشها، وينزوي الناس داخل بيوتهم، أبحر أنا مع أوراقي، وعندما تتوقف الصور في رأسي أو تتشوش أترك الأوراق وأضع الكرزات في صحن والفواكه في صحن آخر وأفتح التلفزيون، لا تهمني برامجه السياسية ولا أتابع الأخبار فهي مكررة طيلة ساعات النهار، أحب مشاهدة الأغاني والبرامج الثقافية والأفلام، في ليالي الصيف يحلو لي النوم على سطح البيت أحدق بالنجوم لفترة طويلة حتى أسقط في النوم، لم أعد أبحث بينها عن نجمي بل عن سر الأرواح المختبئة بين سطوعها.. أحياناً أجلس في الشرفة حيث تطل على شارع عريض مصفوفة على جانبيه أشجار اليوكالبتوس والسدر، أراقب المارة الذين يعودون في أوقات متأخرة من الليل وعادة ما يكونون من الرجال، بعضهم يمشي ببطء كما لو أنه سيقع في الخطوة التالية وآخرون يغذون السير مسرعين كأن أحداً يلاحقهم، أو أنظر إلى البيوت المصفوفة على الجانب المقابل بأضويتها الأسيانة خلف النوافذ وعلى الأسيجة وأتابع ظلال الناس وراء الستائر، أسمع نباح كلاب عن بعد وكلاماً طائشاً لا أدري من أية عتمة ينبثق، وفي ليالي الشتاء أنام في غرفتي، غرفة الفراشات كما كانت تسميها أمي، لا أرغب بتغيير اسمها حتى مع نفسي، فهذه التسمية تشعرني بأنني لست وحدي في هذا البيت الكبير وإنما محاطة بأنفاس العائلة، لكن الراحلين من العائلة يقسون عليّ أحياناً، فيظهر شبح جدتي، يصول ويجول في الزوايا متوعداً، وفي بعض الليالي

Twitter: @ketab_n

تظهر جدتي بوضوح وهي ترفع سوطاً وتدور من غرفة إلى غرفة كأنها تبحث عن شيء محدد لتسوطه، وتتناهى إليّ قهقهات أبي وهو يسخر من أمي، وأرى أمي تغرس بتلات الورود وعلى شفتيها ابتسامة حزينة.. لم أخف من الأشباح، إنها زاد مخيلتي، بل إنني أفتقدها إنْ مرّ وقت طويل ولم تظهر.

**

قبل أن تلد هند اعتُقل سامي، لقد كشف موظف البنك المتهم بالاختلاس وتم القبض عليه بعد عدة أشهر من هروبه أن سامي كان شريكه في العملية، وهو الذي خطط لها على أن يقتسما المبلغ معاً، الاختلاس جاء على مراحل صغيرة لكي لا يُكتشف، نجح أربع مرات وفي الخامسة كشفته اللجنة المُدققة بعد أن تجاوزت المبالغ المختلسة خمسة ملايين دينار سُحبت من حسابات المودعين ومن الحوالات.. لم تتحمل هند وقع الصدمة الشديدة والقاسية عليها، كانت في شهرها الخامس فتعرضت لنزيف حاد نقلتها السيدة علياء إلى المستشفى في ساعة متأخرة من الليل ولم تشأ إخباري إلا عند الصباح فهرعت إلى مستشفى الولادة، ارتفعت درجة حرارتها بشكل مخيف فكان لابد من التضحية بالجنين وإلا ستموت، هذا ما أكده الطبيب وعمل بموجبه فأنقذ حياتها، كانت تأمل في الأيام التالية أن يكون سامي بريئاً من عملية الاختلاس فهي لم تشعر أبداً بتغيير مادي في حياته أو إشارات توحي بأنه مختلس، لكن الأيام أثبتت لها خطأ ظنها، وأن لا مجال إلا لإدانته بعد التفتيش الدقيق لبيته، لقد وجدوا المبلغ المختلس في حقيبة مدفونة في الحديقة، حكم عليه بخمسة عشر عاماً، وسرى الحكم ذاته على شريكه في السرقة.

**

Twitter: @ketab_n

وأنا أقود السيارة عائدة من التسوّق إلى البيت سمعت من ينادي عليّ، التفت ناحية الصوت، ثمة امرأة تسوق سيارة فارهة، امرأة شقراء بعيون ملونة، انعطفتُ إلى شارع فرعي فتبعتني وتقدمتني لتقف على بعد أمتار قليلة ونزلت من سيارتها، ركنت سيارتي ونزلت، فردت ذراعيها وصرخت: الدنيا صغيرة مهما اتسعت يا صديقتي.. اقتربت مني، امرأة مثيرة تلهث على صدرها البض سلاسل ذهبية وتملأ أصابعها خواتم يبرق منها الياقوت والزمرد، وما إن أصبحت قريبة مني حتى عادت بي الذكريات إليها، إنها عزيزة، غريمتي في ريحان، أخذتني بالأحضان وغمرتني بعطورها الفاخرة، بقيت شبه مسمرة وخرساء حتى قالت:

- مابك ياريام أنا عزيزة، هل فقدتِ الذاكرة؟

نظرت إليها من فوق لتحت وقلت:

- كلا.. ولكنك تغيرتِ كثيراً.

ضحكت عالياً، ضحكة داعرة وقالت:

- طبعاً يا عزيزتي، ألم أقل لكِ بأنني سأصبح ثرية ذات يوم؟

قلت لها ومازلت تحت تأثير المفاجأة:

- هل ظهر كنز من جدك التاسع عشر أم تزوجت رجلاً غنياً؟

ضحكت ثانية بالضحكة الداعرة ذاتها ثم قالت:

Twitter: @ketab_n

- لا هذا ولا ذاك، كل ما في الأمر أنني فهمت لعبة الحياة، سنحكي عن ذلك كثيراً، عندما تأتين معي الآن إلى بيتي في الحارثية.

اعتذرت منها وقلت لها بأنني غير مهيأة فأخرجت من حقيبتها كارتاً مدون فيه رقم هاتفها واسمها الذي تحول من عزيزة إلى زيزي، أعطتني إياه مشددة بالقول: سأكون بانتظارك في الوقت الذي ترينه مناسباً لك.

دسستُ الكارت في الجيب الداخلي لحقيبة يدي، وما إن ابتعدت عنها حتى مزقته ورميت قصاصاته من نافذة السيارة وعدت للبيت تلاحقني ضحكاتها الداعرة.

لا أحتاج إلى كثير من التفكير لأعرف حقيقة ما صارت إليه، ثيابها، عطرها، نظراتها، ضحكتها، كل ذلك أخبرني بأنها قطعت صلتها بالماضي، بدت سعيدة بحياتها وبقناعة أكثر رسوخاً من مجرد أمنية كانت عالقة في رأسها بأن تصبح امرأة غنية.

كانت فاطمة قد غابت عدة أيام بسبب مرض امها وعندما عادت أبدت رغبة أن ندخل غرفة الخياطة فوراً لكنني طلبت منها المساعدة في التخلص من كراكيب السرداب فأنا لا أنوي الاحتفاظ بمخلفات الماضي إلى ما لا نهاية، فاستجابت ونزلنا الدرجات، رائحة الرطوبة والعفن والغبار الذي يغطي المحتويات تزكم أنوفنا، وبدأنا نخرج الأشياء الخفيفة أولاً، الكراسي المخلعة والطاولات والتلفزيون العاطل ورؤوس الغزلان الخشبية والفوانيس واللوحات التجارية والاطارات، واحتفظت لنفسي بالصندوق الذي يحوي عدة المسامير والبراغي فقد أحتاج إليها، كما أبقيت الراديو القديم كديكور في إحدى زوايا الصالة، ومن وقت لآخر

Twitter: @ketab_n

تصرخ فاطمة لأن حشرة تسللت إلى قدمها، لقد تكاثرت الحشرات بشكل مخيف، نمل وصراصر وعناكب، ثم خطف فأر من بين أرجلنا فصرخنا وكادت فاطمة تقع على أحد الكراسي المخلوعة، خطف الفأر ودخل ثغرة في الجدار فقمت بملء فم الثغرة بخرقة وجدتها بين المحتويات ريثما نعالج الأمر فيما بعد، وتحت إحدى الطاولات كان يلوذ السماور الذي كانت جدتي تستخدمه لغلي الشاي، لقد تحول لونه الفضي إلى لون مسود، أردت التخلص منه لأنه يعيدني إلى مناكدات جدتي مسعودة، لكن فاطمة قالت إنه تحفة فنية يحتاج فقط إلى إعادة بريق لونه فقلت لها سأعمل على ذلك بتنظيفه ودعكه بالبيكربونات، وبينما أنا أفرز المحتويات وفاطمة تساعدني عثرت على الجرس الذي كان يستخدمه أبي في غرفته، والذي حين كبرت علمت سر تمسك أبي بهذا الجرس، فأبي لا يستخدمه عندما يحتاج شيئاً كما قالت أمي، ووقتها سألتها ثانية : لماذا لا يحتاج شيئاً في النهار واقتصر رنينه عند المساء؟ ولماذا يدق مرة واحدة أحياناً ويدق دقتين في غالب الأحيان؟ وكانت أمي لا ترد بل تطلب مني الكف عن الأسئلة، أما جدتي حين سألتها فكان ردها: إنه جرس الأسرار يا صغيرتي.. وبعد وقت طويل سأعرف أن أبي يستخدم الجرس لزوجتيه، فحينما يدق مرة واحدة فهو يدعو أمي لتنام معه، أما عندما يدق مرتين فهو يدعو الزوجة الثانية، ولذلك فرنينه في الغالب مرتين.. حكيت لفاطمة قصة الجرس حين لم يبق إلا الحشرات في السرداب، وصعدنا لنأخذ استراحة فكنت أمسك به وأهزه برنين متواصل ونضحك، كان يوماً حافلاً بالعمل، فبعد أن أخلينا السرداب من محتوياته ورششنا فيه مادة الدي دي تي لقتل الحشرات قمنا بتنظيف حواشي الحديقة وأجرينا الماء في السواقي ثم اغتسلنا وتغدينا واقترحتُ على فاطمة أن لا ندخل

Twitter: @ketab_n

هذا اليوم غرفة الخياطة لأننا متعبتين، وطلبت منها أن تفكر جدياً بالعيش معي فأبدت رغبتها وقالت بأنها يجب أن تتشاور مع عائلتها بالأمر.

فاطمة، التي سيريحني وجودها بالقرب مني، ترملت بعد شهر واحد على زواجها، ففي إحدى المعارك الشرسة من معارك الحرب فُقد زوجها، كان ذلك في منتصف الحرب العراقية الإيرانية، لم يظهر اسمه ضمن أسماء الأسرى ولم يُعثر له على أثر حتى بعد انتهاء الحرب، وعلى الرغم من أنه شرعاً يحق لها الزواج إلا ان أسرتها رفضت مستحضرة قصة تلك المرأة التي تزوجت بعد خمس سنوات من فقدان زوجها في الحرب، وبعد أن أنجبت من الزوج الثاني ولدين عاد الزوج الأول.. لقد ظلت أسرة فاطمة تؤملها بعودة زوجها المفقود، وهي من جانبها تخشى أن تجد نفسها في المأزق ذاته الذي وُضعت فيه تلك المرأة التي لم تتحمل الصدمة فماتت بالسكتة القلبية، تشبثت فاطمة بسراب الأمل الذي تزقه أسرتها لها بأنه أسير، حتى وجدت نفسها وقد مرّ بها قطار العمر مخلفاً في قلبها الحسرات، وكلما ورد اسمها على لسان معارفها سبقته صفة الأرملة.

في جلساتنا الطويلة تفتح فاطمة قلبها فتبوح لي بأنها نادمة ان انتظرت كل تلك السنين والتصق بها لقب أرملة مع أن الأمر غير محسوم من الناحية القانونية، وإذا كان أسيراً فهي اكثر أسراً منه، تزفر من أعماقها وتقول: أنا الأسيرة يا ريام، لا أنا متزوجة ولا مطلقة ولا أرملة بالمعنى المعروف للترمل، كان يمكن أن أتزوج وأنجب وأعيش مثل النساء لكن أبي في حياته رفض أن يعتقني من هذا الأسر وبعد موته أصرت أمي أن أبقي على وصية أبي، وهكذا يا ريام ترين أن الرجال يحكموننا في حياتهم وبعد موتهم أيضاً، أبي وأمي جعلاني أشعر بأن حياتي مقفرة، آكل وأنام،

Twitter: @ketab_n

وأنام وآكل ولا أرى في نفسي إلا ما أراه في أية بهيمة تدب على الأرض، ولولا أنني اتجهت إلى العمل لكانت عظامي الآن مدفونة في أحد القبور.

كلما سألت فاطمة: هل ثمة أمل في عودة زوجها مثلما حدث مع كثير من المفقودين؟ يأتي ردها: دون أدنى شك هو ميت، حتى انني نسيت ملامحه، وهذا يعني أن الحب الذي بيني وبينه انتهى، فلو كان في قلبي له مكان لبقيت ملامحه محفورة مثل وشم، أنا فقط حين أتذكره أترحّم عليه.. وفي كل مرة، عندما تستذكره فاطمة تختم كلامها بالقول: ألا تباً للحروب ومشعليها الذين يظنون أن الخسائر يتكبدها الجنود فقط، وأقول لها مخففة عنها ومحاولة استدراجها للمزيد من البوح: ألم يخفق قلبك لرجل؟ وأرى على وجهها انفراجة وعلى شفتيها ابتسامة، تأخذ فاطمة وقتاً كأنها تخير نفسها بين البوح والإحجام عنه ثم تقول: قبل سبع سنوات ارتبطت بعلاقة مع رجل، أحببته فعلاً وأحبني، وقلت في داخلي هذه المرة سأملك زمام نفسي وأتحدى أهلي، وكلمت أمي بالأمر مهددة إياها بأنني سأرتّب أوضاعي وأتقدم للمحكمة لتبت لي بأمر طلاقي فلا يمكن أن أبقى معلقة برجل لا وجود له، وصارحت أمي بأنني أحببت رجلاً وسأتزوجه وإن رفضت العائلة سأهرب معه وأتسبب بفضيحة، ويبدو أن أمي وجدت في عيني ما يُنبىء عن التحدي الذي لا راد له، وطلبت مني أن أمهلها بضعة أيام ريثما تمهد للأمر مع أبي، كان أبي وقتها على قيد الحياة، وخلال هذه الأيام قام حبيبي بإخبار عائلته فجوبه بالرفض القاطع فهو لم يسبق له الزواج من قبل ولا تريد عائلته ان تتعرض إلى مشاكل فيما لو عاد الزوج المفقود، وهكذا انتهت تلك العلاقة، الآن يا ريام لم يعد يهمني أن أتزوج أو يعود زوجي أو لا يعود، الأمور كلها سواسية لدي، أخي الذي يصغرني بأربعة أعوام تزوج وأنجب بنتاً وثلاثة أولاد، وأمي دائمة

Twitter: @ketab_n

الطلب مني أن أغفر لها وأترحم على أبي، وأنا الآن تجاوزت الأربعين من العمر، العائلة كلها ندمت ولكن ماذا ينفع الندم، حتى لو تزوجت الآن فإنني لن أنجب، لقد انقطعت دورتي الشهرية منذ العام الماضي، هذا سيكون سبباً مضافاً في تعاستي.. أنتبه لعبارتها الأخيرة وأحسب سنوات عمري فأشعر بوخزة ألم خفي، لكنني لا أسقط في فخ اليأس فما تزال أمامي سنوات، وبرغم ما مر بي من نكسات فإنني أشعر بالرضا، يمكنني أن أقول بأنني حولت الأشياء من حولي إلى حيوات تسند خطواتي وتثبتها على الأرض، الثياب لها روح والأشجار والورود لها أنفاس أسمعها بيقين لا يشوبه الشك، وكلبة الجيران التي تكبر بطنها كل يوم تحميني والذكريات الحلوة أعمّقها وأعمّر قلبي بها طاردة أو مخففة من الذكريات السيئة لكي تستقيم حياتي أو لكي أحتمل مرارات الحياة.. ولأن فاطمة دخلت من خلال حكايتها إلى منطقة اليأس فإنني أردت أن أخفف عنها فقلت ضاحكة: عزيزتي فاطمة أنت في عز الشباب وأمامك وقت طويل لكي تستمتعي بحياتك، ألم تسمعي بمن قال إن الحياة تبدأ بعد الستين؟ ضحكت فاطمة من أعماقها، ضحكت بمرارة لتقول بعد ذلك: الذي قال تلك العبارة إما أن يكون رجلاً صبوراً وعفيفاً أراد أن يخفف من يأسه في الحياة، أو رجلاً ذا غرائز شرهة أراد ان يستمتع بالحياة إلى أقصاها...وبعد صمت قصير قالت: ها، ألم تصلح حياتي لكتابة رواية؟

فاطمة لا تدري بأنني أكتب عنها أيضاً في هذه الأوراق.

بعد شهر من الحكم على سامي وبعد أن ثبّتت محكمة التمييز ما أقرته المحكمة تركت هند بيتها وعادت لتعيش معي، اختارت غرفة أمي لتكون غرفتها، قالت بأنها ستعطي نفسها فرصة لتفكر جيداً قبل الإقدام لطلب

Twitter: @ketab_n

الطلاق، كانت تعيسة وخائرة القوى بعد الإسقاط الذي تعرضت له إثر الصدمة التي تلقتها، وكانت تحسب حساباً للسيدة علياء التي تحترمها فقد عاملتها بمحبة فائضة ليس كزوجة ابن تعيد من خلالها حكايات أمهات الأزواج مع كنّاتهن بل كإبنة تستحق حنانها ورعايتها، أما الآن فهند في حل من الالتزام بعهد الزواج بعد أن لم يعد ذاك العهد صالحاً للحياة، هذا ما أراه وسأنتظر قرارها.

شعرتُ بفرح خفي وهي تعود لتعيش معي، قلت لها: من يسرق مرة فإنه لا يقاوم رغبة السرقة مرات، واستشهدت بما حدث مع محمود وكيف تقلبت به الدنيا، كان مايزال لسامي مكان في نفسها فهو أول رجل يخفق له قلبها، وعشتُ أرقاً متواصلاً لكي اقرر أن أبوح لها عما نابني من سامي فقد ترددت كثيراً لئلا تزيد حالتها سوءاً وأرجحني الصراع بين الإقدام على مصارحتها والإحجام بالتزام الصمت لعل أحزانها تخف فتتخذ القرار الصائب بنفسها، لكنني بعد أن عجزتُ عن إخراجها من حالة الحزن وتردي صحتها قررت أن أنهي حالة الصراع مع نفسي، وما إن أفصحت لها حتى نظرت إليّ نظرة من يبحث في العينين عن مدى الصدق أو الكذب، ألم يقولوا إن العين مرآة؟ بحثت هند في عيني متشككة كما كانت أمي تفعل معي لتكشف ما تخبؤه عيناي فقد كنت كثيرة الكذب في صغري، وبعد أن استشفت صدق ما أقول وبّختني لإخفائي مثل هكذا سر، فبررت لها بأنني أدرك كم كانت تحب سامي وكنت أخشى عليها من الصدمة ففضلت الابتعاد بالعودة إلى بيت العائلة القديم، وفهمت لماذا قلت لها بأنني لا أحب زيارة الرجال إلى بيتي حتى وإن كان الذي يزورني زوجها.. وبرغم أنها هي التي اتخذت قرار الطلاق وعادت إلى البيت إلا أن

Twitter: @ketab_n

شخصيتها بدأت تنحو إلى التعقيد وتميل إلى التسلّط.. وهذا ما سيرد في صفحات أخر.

**

Twitter: @ketab_n

كانت هند في الحديقة تغرس شجرة لبلاب في المكان الذي كانت أمي قد غرست فيه قبل سنوات غصناً فكبر واستطال بسرعة عجيبة وغطى جداراً بأكمله، وكنت وفاطمة في غرفة الخياطة وبعد أن انتهت هند من عملية الغرس والسقي جاءت إلينا لتعلن: لقد حسمت أمري، غداً سأتقدم بإجراءات الطلاق، أسرعت فاطمة للقول: هذا أفضل لك لا تبقي معلقة برجل خان الأمانة، وقلت لها: القرار قرارك يا أختي فردت علي بالقول:علينا أن نواصل الحياة.. العبارة التي تبنيناها عن أمي التي كانت ترددها بعد كل انتكاسة أو حادث مؤلم يلم بنا، عندما قالت هند تلك العبارة شعرت بقرب أنفاس أمي وامتلأت نفسي بالسكينة.. ها هو البيت القديم يعيد لحمتنا، هند وأنا وأمي التي تمرق بيننا كنسمة منداة بعطر القداح الذي كانت تقطفه لنا، وصابرين المرحة كأنها تعود بيننا وتلقي الطرائف على مسامعنا.. بكل تلك الذكريات وبالعزيمة على سحق اليأس كنا نغرز الإبرة في القماش، نثبت الأزرار، نطرز الجلبيات، نمشي على مهل مع خيوط البريسم الرقيقة ونخشى على أجنحة الفراشات من التمزق فنوليها العناية الأكبر.فاطمة بيننا لا تنقصها الحماسة وهند تقترح من وقت لآخر أن نكمل عباءة أمي لكن اقتراحها يصطدم بمعارضة مني: أريد لعباءة أمي أن تبقى على حالها لكي أشعر بأن أمي ستعود في أية لحظة وتكملها، تستغرب فاطمة وتقول: إن كانت للأموات عودة لضاقت الأرض بما رحبت ولعمّت الفوضى، الموت نعمة يا ريام، نعمة لا يدركها البشر، يستغرقني التفكير بعبارتها ليلاً وبين نوم وصحو أسمع صوتاً قوياً ورخيماً ينبثق من مأذنة الجامع القريب يشق ظلام الليل بنبرات عالية (وينفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) وأرى الموتى يخرجون من قبورهم، ينفضون التراب عن أكفانهم، عيونهم مذعورة وأصواتهم مشروخة، يركضون حفاة وعراة، فرادى وجماعات، ينسلّون

Twitter: @ketab_n

إلى الشوارع وليس إلى ربهم، كل يبحث عن بيته وأهله فمنهم من يجد ومنهم من يتيه، تختنق بهم الشوارع والساحات والأسواق ويدب الرعب بين الناس، ويعود الصوت الرخيم بنبرات أعلى (وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) وهم لا يرجعون أو يتراجعون وإنما يتقدمون ويتلاطمون كالأمواج الصاخبة وتحدث الفوضى ويعم الاضطراب وتقوم الحرب بين الأموات والأحياء، سيوف تبرق ويتطاير وميضها في الفضاء، فؤوس برؤوس مدببة تهوي على الرؤوس، دماء تجري مثل أنهار، المقتول يبحث عمن قتله فيثأر منه وقتلة يقتلون ضحاياهم مرة أخرى، وأرى أمي بين هذه الفوضى تمسك بيد صابرين وتحاول الاستدلال على البيت فأنادي عليها ويضيع النداء بين الصخب العالي، وأرى أبي يحمل جدتي مسعودة على ظهره يمسك بها بيد واليد الثانية يشد بها على يد بهيجة، يمشي بصعوبة كأنه يخوض في مياه عميقة ويخشى الغرق، وشيئاً فشيئاً يخفت الصراخ وتهت الصورة المرعبة.. وأنام، أنام نوماً ثقيلاً ومرهقاً لا أصحو منه الإ على صوت هند تهز جسدي وتقول: أريد أن أذهب مبكرة إلى المحل هذا اليوم ألا تشاركينني الفطور؟ كنا افتتحنا منذ أسبوعين محلّنا في شارع النهر، أطلقنا عليه الاسم القديم الذي كانت أمي قد اختارته (محل سمر الفضلي للألبسة النسائية) إكراماً لتلك الروح التي رعتنا وعلمتنا المهنة، وبإدارة هند فهي الأكثر دراية مني بعالم السوق حيث كانت لصيقة بأمي في كثير من تعاملات البيع والشراء.. نفضتُ بقايا صور وصراخ من ذاك الكابوس ونزلتُ من السرير.

**

Twitter: @ketab_n

لم أعد أرى كلبة الجيران منذ أيام لكنني أسمع نباحها من حين لآخر، ربما ثقل حملها فلم تستطع القفز على السياج، راودتني رغبة السؤال عنها لكنني لا أعرف أحداً من الجيران، هؤلاء الذين يسكنون بيت الجيران ليسوا هم من كانوا يسكنونه أيام طفولتي وصباي، حتى أنني لم أر أحداً منهم منذ ان عدت إلى البيت وإلا لجاءوا مرحبين ومستذكرين الأيام الخوالي، وحتى لو كان هؤلاء الجيران لا يعرفوننا فمن عادة الناس أن يحتفوا بالجيران الجدد، للأسف لم يعد لهذه العادة من وجود فقد تغيرت الأحوال وتبعاً لذلك صار البعض يتوجس من البعض الآخر، مرة واحدة رأيت رجلاً لم يسبق لي أن رأيته من قبل يدخل البيت، رجلاً أنيقاً ربما كان في الخمسين من العمر أو أقل بقليل، يحمل حقيبة نوع سمسونايت ويضع نظارة طبية على عينيه، كنت عائدة من شارع النهر بعد أن مررت على هند في المحل حاملةً عُدة جديدة من خيوط التطريز والأزرار والأشرطة والبلك والخرز، سألتني هند ألا أكون قد نسيت البلك كما في المرة السابقة لأنها ستستخدمها للفراشات التي رسمتها على إحدى العباءات فقلت لها اشتريت ما يكفي غابة من الفراشات فقالت اسبقيني إلى البيت وسأعود بعد الرابعة عصراً، كنت بصدد إدخال سيارتي إلى كراج البيت عندما لمحته يدخل بيته، البيت الذي لا أسمع منه أصوات أطفال ولا أرى امرأة، أتراه يعيش بمفرده؟ ما إن طرحتُ على نفسي هذا السؤال حتى استيقظ شيء في داخلي، شيء غير واضح لكنه أربكني وأحالني إلى حالة يمكن أن أسميها الفضول، أردت أن أعرف كيف يعيش هذا الرجل، في الصباح أستيقظ على صوت سيارته فأسرع وأنظر اليه من نافذة غرفتي التي تطل على جانب من حديقته وعلى بابه الخارجي لكنه يكون قد خرج تماماً قبل أن أتمكن من رؤية وجهه أو لم أر منه إلا ظهره، وعند العصر أتعمد الصعود إلى السطح ليريني انكشاف المكان

Twitter: @ketab_n

مساحة أوسع مما تريني إياه النافذة، وأرمي بصري إلى حديقة بيته لعلي أكتشف عالم هذا الرجل المتوحد مع نفسه... لكنني لم أصل إلى شيء، وبعد فترة طويلة رأيته من النافذة، يجلس على كرسي خشبي في حديقته، ظهره إلى سياج بيتنا ووجهه مغروز في كتاب يقرؤه، كان الوقت عصراً وعلى الثيّل الأخضر تتمدد كلبته، ترى ماذا يقرأ وأي الكتب تستهويه؟ بقيت متسمرة عند نافذتي لعله يترك مكانه ويقوم، لكنه ظل يقرأ فترة طويلة، وأثناء ما كنت أروح وأجيء في غرفتي كان هو قد غادر مكانه قبل أن أراه.

وذات صباح بينما كنت أستيقظ للتو من النوم وأنا على السطح سمعت أصواتاً متداخلة تهمهم فمضيت إلى الشرفة لأرى الكلبة مع أربعة جراء لا أدري كيف حملتهم وجاءت بهم إلى حديقتنا، غمرني شعور أقرب إلى الأمومة ونزلت مسرعة، كانت فاطمة قد استيقظت قبلي وهي تعد طعام الفطور وقبل ان ألقي عليها التحية أخبرتني بالجراء، وقفنا ننظر إليها من نافذة المطبخ صامتتين، إلا من تنهدات فاطمة، لا يساورني الشك أنها تمنت أن تكون كلبة لتلد الجراء بدل امرأة عاطلة عن الإنجاب وعن الحب، وجاءت هند ملفوفة بالبرنس فقد كانت تستحم، أخبرناها عن الكلبة فقالت بأنها رأتها حالما استيقظت، من عادة هند أنها تذهب إلى الحديقة وتقوم بتمارين رياضية قبل أن تتناول الإفطار ثم تدخل الحمام وتغتسل، ولأن الحديقة تعبق برائحة أزهار القداح فقد جمعتُ في صحن كمية منها ووضعتها على الطاولة، لتعبق برائحتها وتعيد إلينا عبق تلك القلادات والأكاليل التي كانت أمي تُلبسنا إياها، كانت هند هي التي تقطف القداح في الأيام الماضية إلا أنني في ذلك الصباح قمت بتلك المهمة لكي أقترب من الكلبة وجرائها، وكلما اقتربت تحفزتْ ونظرتْ إليّ بعينين

Twitter: @ketab_n

مرعوبتين ومتربصتين، لا شك أنها تحذرني أن لا أقترب من صغارها، حاولت أن أبث إليها بعض الأمان فذهبت إلى المطبخ وسكبت كمية من الحليب في طاسة ثم عدت إلى الحديقة محاولة الاقتراب من الأم وجرائها لكنها هذه المرة نبحت فأنزلت الطاسة وملت بها لأريها الحليب، ثم تركت الطاسة في أقرب نقطة وصلت بها إلى الكلبة وعدت ثانية إلى المطبخ وبقيت أراقبها حتى اقتربت من الطاسة، تشممتها ولعقت بعضاً من الحليب وكانت جراؤها تتبعها ببطء، فتحسستهم بأنفها كأنها تدعوهم للوليمة وتمددت بالقرب منهم، غير أن الجراء كانت تبحث عن الحليب في أثدائها.

في ذلك الصباح، ونحن على مائدة الإفطار، هند وفاطمة وأنا، حدث أمر هزني من الأعماق، كنا نتحدث عن الكلبة وغريزة الأمومة حين يقترب شخص ما من جرائها، ثم تكلمنا عن الخياطة وسألتنا فاطمة: لماذا نعذب أنفسنا بالتطريز اليدوي بينما الماكنة تستطيع أن تفعل ذلك بوقت أسرع وجهد أقل؟ فردت عليها هند: بأن الفرق بين التطريز بالماكنة والتطريز باليد كالفرق بين الطعام المعلّب وطعام البيت، ذاك بلا نكهة وهذا بجميع النكهات، وجرنا الجواب إلى ماذا سنطبخ للغداء؟ وكنا أحياناً نصمت، حدث الأمر عندما صمتنا، كانت تراودني رغبة اقتناء واحد من الجراء وأردت أن أطرح الأمر على هند وكيف يمكنني ذلك، هل أطرق الباب على جاري وأحكي له عن رغبتي أم أنتظر حتى تكبر الجراء، وكنت أتساءل مع نفسي هل حقاً أرغب باقتناء جرو أم أنني من خلال الجرو أريد الوصول إلى جاري؟ عندها رفعت رأسي ونظرت إلى هند التي تجلس قبالتي، وقبل أن أتفوه بكلمة هالني ما رأيت.

Twitter: @ketab_n

لم تكن هند هي التي تجلس معنا على المائدة، بل كانت أمي، تقطّع رغيف الخبز وتأخذ قطعة صغيرة تضع فيها القليل من الجبن مع ورقتين من النعناع وتأكل بصمت، وكانت ثمة فراشات بيض صغيرة الحجم تدور من حولها، كدت أصرخ، لكنني في اللحظة التالية أغمضت عينيّ لأخلصهما من اضطراب الرؤية وأترك لقلبي وقتاً لكي تنتظم نبضاته التي تسارعت، ثم فتحت عيني، فإذا هند هي التي تقابلني في جلستها، وتقضم رغيف الخبز بالجبن والنعناع، ما الذي حدث لي وكيف رأيت أمي؟ هذا ما لم أعلمه، وعلى الرغم من أن هند تتشبه بسلوك أمي منذ طفولتها وهي مثلها الأعلى، إلا أن الأمر لا يصل حدّ أن أرى أمي بكل ملامح وجهها وطريقة تسريح شعرها على هذا النحو الواضح، تبلبلتُ وما يزال اضطراب في داخلي عندما انتبهت إلى فاطمة وهي تقول: مابك يا ريام، أنت لا تأكلين؟ وعلقت هند: إنها تشرد كثيراً هذه الأيام لا ندري أين تذهب، فاضطررت للقول بأنني أفكر باقتناء أحد الجراء، هذا كل ما في الأمر، وطبعاً لم أستطع أن أحكي عن الذي رأيته.

منذ ذلك اليوم، يوم رأيت أمي على مائدة الإفطار صرت أراقب حركات هند فاكتشفت أن فيها الكثير من أمي، بما يجيء على لسانها أو ما يأتي في سلوكها العام، بل يترسخ الشبه بينهما بمرور السنين، وصار يقترب إلى حد التطابق عندما تتبنى هند آراء أمي في الحياة وتعيد مقولاتها، لا أدري إن كانت تتعمد الإيغال في التشبه بأمي أم أن الأمر لا يخلو من طبيعة تسللت إلى جيناتها، وربما أكون أنا من عمّقت هذا الشبه بفعل حنيني لأيام أمي ولحاجتي لمن يحميني، أو أن هند تحاول أن تهرب من هزيمتها في الحب بتبني شخصية أخرى فلم تجد غير استنساخ شخصية أمي، على الرغم من أن أمي لم تكن حادة الطبع مثل هند.

Twitter: @ketab_n

صار الصعود إلى السطح ومراقبة جاري عادة يومية لا تفسير لها عندي على الرغم من أنني لم أقع في حب الرجل الذي لم أره إلا مرات قليلة لم أتبين فيها ملامحه، فهو إما خارج من بيته وإما داخل إليه في وقت لا يستغرق سوى نصف دقيقة ونادراً ما أراه يجلس في الحديقة وظهره إلى سياج بيتنا، وفي بعض الليالي حينما يكون الأرق متمكناً مني أسمع صوت بابه الخارجي فأنظر من نافذتي وأراه في آخر الليل يعود، يغلق الباب ويمضي إلى الداخل بهدوء، فلماذا استحوذ هذا الرجل على اهتمامي؟ ولماذا في هذا الوقت بالذات فكرت أن أفصّل فستاناً مثيراً كان يوماً ما أمنية لم تتحقق؟ ترى كيف سيكون طعم الحب، إن كان ما أعانيه حباً، وأنا أهرول إلى النصف الثاني من الثلاثين؟وجهنمية جاري تتفرع بكثافة وتتوهج ورودها الياقوتية تحت الشمس متسلقةً نصف جدار بيتنا، وماذا أفعل في مثل هكذا حالة إذا لم يكن جاري على استعداد نفسي لتقبل العلاقة؟ أو أنه يكون على علاقة بامرأة سأكتشف ذات يوم أنها تدخل بيته سراً؟ هل سأشعر بالانكسار مثلاً؟ أوه.. إنني أستبق الأمور ويذهب خيالي بعيداً وهذا يعني أنني أعيش فراغاً عاطفياً لا حدود له، لا الخياطة ولا الكتابة تملؤه فماذا أفعل كي أملأ فراغ روحي؟

**

سألتني هند وهي تراني أقص قطعة المخمل السماوية: ماذا ستفعلين بها؟ قلت لها من دون أن أرفع نظري إليها: سأخيط فستاناً لي لقد أعجبني هذا القماش، سألتني ثانية: هل اخترت موديلاً من إحدى المجلات؟ فقلت: كلا، إنه في مخيلتي، أرادت هند توضيحاً فقلت لها: دعيني أكمله، سيكون مفاجأة، نظرت إليّ نظرة متشككة بقدراتي وقالت بأنه لن يكون مفاجأة

Twitter: @ketab_n

مالم تكون لأصابعها دور في تصميمه، لم أعلق على كلامها، وانشغلت بفستاني دون أن أدرك أن سنوات عمري لا يناسبها مثل هكذا فستان، بل إن الحياة تغيرت منذ سنوات وبدأت النساء الشابات يتحجبن أما بالضغط عليهن من الأهل والأزواج أو بسبب الحالة الاقتصادية التي عصفت بالبلد والتوجه الذي قادته الحكومة وبعض رجال الدين ليغيّروا من شكل الحياة وأصبحت القوانين الخاصة بحقوق المرأة التي ناضلت من أجلها سنوات طويلة حبراً على ورق.. لكن نساءاً أخريات مازلن يقاومن عكس التيار ويفرضن وجودهن، وربما أكون واحدة منهن برغم ابتعادي عن التجمعات النسوية التي تكشف عن نفسها من حين لآخر.

بعد يومين انتهيت من خياطة الفستان، الفستان الذي أعرف أنني لن أرتديه وأخرج به إلى الشارع، إنه فقط لتحقيق رغبة عاشت تحت جلدي منذ سنوات ولأقول لنفسي ها إنني حققتُ شيئاً رغبتُ فيه بشدة حتى وإن كان هذا الشيء مجرد فستان، كنت أقف أمام المرآة الطويلة في الممر المؤدي للغرف، وكانت هند قد سبقتني إلى غرفة الخياطة وفاطمة تغسل الصحون، اليوم جمعة وعادة لا تذهب هند إلى المحل، اندهشت وأنا أنظر إلى جسدي المتناسق ولدقة العمل في الفستان وروعته، غمرني شعور فياض بأنوثتي التي تجاهلتها منذ اختفى نجم وراء القضبان في مدينة الملح والرمال، وبينما أنا أتحرك يميناً ويساراً لمعاينة الفستان تناهى إليّ صوت من غرفة الخياطة (جوز منهم لا تعاتبهم بعد جوز) لم أسمع هند تغني منذ وفاة أمي، وكانت دائماً تغني أغنيات نجاة الصغيرة فلماذا تغني الآن أغنية لعفيفة اسكندر؟ لقد ذهب ذلك الزمن وانقضى بأفراحه وأوجاعه، فما الذي حدث لأختي لتعود إليه؟ لم أنزع الفستان حين مضيت إليها، أردت أن أريها المفاجأة، ماذا عساها تقول عن هذا

Twitter: @ketab_n

الفستان المثير والمكسّم على جسدي وبدون أكمام وهي الذوّاقة التي أخذت عن أمي الخبرة والذوق الراقي؟ وما إن دخلت عليها متبخترة وأنا أقول لها: هذه هي المفاجأة، حتى توقفت عن الغناء، شحب وجهها ورمقتني بنظرة متفحصة قبل أن تقول محتجة: معقول؟ ترتدين فستاناً ضيقاً وقصيراً وبلا أكمام؟ فقلت لها مفتعلةً المماحكة: ولِم لا؟ لماذا أدفن جسدي في الأثواب الفضفاضة والألوان الغامقة الكامدة؟ كانت الدهشة ما تزال على وجهها فقالت مستنكرة: بهذا العمر؟ فقلت محتجة: هل بلغتُ الشيخوخة ولم أعرف؟ دعيني يا أختي أبرز مفاتن جسدي مرة واحدة في العمر وأشعر بأنني مثيرة ومرغوبة، ألا يحق لي ذلك؟

ما حدث بعد ذلك هو الذي خلخل الرؤية فغمرني ضباب كثيف عندما قالت هند: الإثارة موجودة حتى بالملابس المحتشمة، المرأة بسلوكها هي التي تضفي الإثارة على الثياب وتجعلها نابضة بالحياة.. عند هذه الكلمات لم أعد أرى هند بل رأيت أمي وسمعت صوتها الذي خرج من فم هند بذات الكلمات والنبرات الهادئة، وأظنني رأيت فاطمة تدخل قبل أن تغيب أشكال الموجودات عن عيني.. ثم أفقت بعد وقت لا أدريه على أصوات متداخلة ورؤية مضببة ورأيت أصابع ضخمة ترش على وجهي ماء الورد، فتحت عيني لأرى هند وأسمع فاطمة تقول: الحمد لله، لا تخافي يا ست هند، ريام تفيق.

**

Twitter: @ketab_n

منذ فترة طويلة لم أتصل بالسيد مختار، وانتبهت إلى أنه لم يتصل بي كعادته ليبدي المشورة بعد أن يسأل عن أحوالنا، فرفعت سماعة الهاتف ودوّرت رقمه، جاء صوت آخر قال لي بأنه شقيق السيد مختار، وأين السيد مختار؟ سألت صاحب الصوت فرد بصوت حزين: أخي مات منذ ثلاثة أسابيع، اختض بدني وكادت السماعة تسقط من يدي وخرج صوتي باكياً: ماذا تقول؟ أعرف بالضبط ماذا قال لي، لكن تكرار العبارة يجيء في هذه الحالة عندما لا نريد أن نصدق الذي حدث، سألته من بين الدموع التي جرت ولم أستطع إيقاف تدفقها : كيف مات؟ رد عليّ : داهمته نوبة قلبية لم تمهله حتى لنقله إلى المستشفى.. بكيت وما يزال صوتي معلقاً عبر الأسلاك والرجل يحاول تهدئتي ويسأل من أنا، وأقول له: كفى، ثم أغلق السماعة.. لماذا قلت كفى ولم أقل ريام؟

بقيت طيلة النهار مكتئبة، لم أدخل غرفة الخياطة، فاطمة تواسيني، وعندما تجري دموعي تقول لي: من يرى دموعك يقول إن الميت أبوكِ، فأرد عليها بحرقة البكاء بأنني لم أبك على أبي يوم مات، ورحت أحكي لها عن مروءة السيد مختار وطيبته، ولم أحك لها عن تعلقه بأمي أو نصائحه لي فيما يتعلق بحكايتي مع نجم، وعندما عادت هند من العمل وعرفت بموت السيد مختار شعرت بالأسف لكن الخبر لم يترك على ملامحها أي أثر، بل قالت: كل نفسٍ ذائقة الموت، ومر النهار كئيباً واستغرقتني الذكريات لساعات طويلة في الليل كأنها شريط أعيد لقطاته كل لحظة ويعود معها نجم منذ أول يوم رأيته فيه حتى آخر لقاء اختفى من بعده.. ثم أعود إلى السيد مختار وأتساءل لماذا يفاجؤنا موت الذين نحبهم ويحفر في قلوبنا في الوقت الذي نعلم فيه أن كل نفس ذائقة الموت؟ ترى كيف هو طعمه؟ مر كالعلقم أو حلو كالشهد أو لاذع أو حارق أو..ماذا؟

Twitter: @ketab_n

وإذا كان الموت هو نهاية الجسد فإلى أين تمضي الروح؟ وما حقيقة أن الروح تظل تطوف حول أماكنها الأولى لتظل قريبة من أحبائها تراهم وهم لا يرونها؟ إنْ صحّ ذلك فبأية عيون تراهم؟ وإن لم يصح فأين تذهب بعد موت الجسد، أم أنها هي الأخرى تموت، أم نحن الموتى كما قالت صابرين في ذلك الحلم البعيد: جئتُ أزوركم أيها الموتى؟ لا أحد يمتلك الإجابة الحاسمة، كل ما يتردد على الشفاه هو كلمة واحدة نرميها بوجه الباحث عن معنى للوجود: زوال.

كل شيء إلى زوال.. وها أنا أكتب دون أن أفكر بمن سيقرأ هذه الأوراق، أكتب قبل أن أمضي إلى الزوال، الزوال الأكثر غموضاً من الموت الذي لا أحد يفك غموضه لكننا نداري عجزنا ونخفف وطأة عذاباتنا فنبتكر له الحكايات ونصدقها فتصبح عبر تراكم السنين مثل قوانين ثابتة يصعب تجاوزها، فكم من مرة سمعت بتناسخ الأرواح أو حلول الأرواح بعد مغادرتها الجسد في أجساد أخرى، أحياناً أصل إلى يقين بشأنها وأحياناً أخرى يراودني الشك، وكثيراً ما أتأرجح بينهما، أقول مرة بأن روح أمي تلبست هند، وأتراجع مرة أخرى وأقول إن هند التي انهار عالمها هي التي أرادت أن تتخلص من نفسها فلم تجد غير التشبه بأمي، ألم تخبرني مرة بأنها كانت ترغب بإنجاب ثلاث بنات تطلق عليهن أسماء سمر وصابرين وريام لتكرر حياة أمي؟ هذا التفسير يريحني أكثر من أن تكون روح أمي قد حلت بجسد هند، فهو الأكثر قرباً إلى العقل والمنطق، لكن هند بلبلت كل ظنوني عندما راحت تضيف إلى شخصيتها نوعاً من السخرية مني وحب السيطرة عليّ، وهذا ما لم تكن تفعله أمي في حياتها.

Twitter: @ketab_n

الجراء كبرت وصارت تتسلق الجدار وتدخل بين ورود الجهنمية وتقفز إلى حديقتنا، وتلعب وتتشقلب على العشب، وصرت أهتم بها عن قرب وأضع لها الطعام في صينية خصصتها لها، وأحياناً ألعب معها في الفترات غير المخصصة للعمل بينما هند تذكرني بأن هذه الجراء ليست ملكنا فأرد عليها بأن علاقة سرية تربط بيني وبينها، تنظر إليّ بسخرية مبطنة، وتريد أن تعرف مامعنى العلاقة السرية فأقول لها ليس كل ما نرتبط به يجب تفسيره، وعلى سبيل المثال ثمة شيء خفي يشدنا إلى لغة الأزهار دون أن نفهم بالضبط ما تعنيه تلك اللغة، تضحك هند مما أقول وتعلق: هل ستكتبين هذا بروايتك؟ أتجاوز سخريتها وأرد: ربما.. وبيني وبين نفسي أقول: أريد أن أصل من خلال الكلاب إلى الرجل الذي يسكن البيت المجاور، لماذا يعيش وحيداً وكيف يعيش، هل هو أرمل أم عازب وعازف عن الزواج؟ ولماذا لم أسمع أية أصوات تدخل أو تخرج من بيته؟ لماذا لا يأتي إليه ضيوف مثلاً؟ لقد حيرني أمره وشغلني وليس ثمة من تفسير للحالة التي أعيشها حين أفكر به، وأعيد التساؤلات على نفسي: ما الذي أريده بالضبط من هذا الرجل؟ هل بسبب حالة الفضول التي رافقتني منذ طفولتي بمتابعة كل ما هو غامض ومغلق؟ أم..... فراغ عاطفي أعيشه وأريد أن أروي عطش روحي وأنقذ جسدي من العطب؟ أم أن اليد الخفية للقدر هي التي تريد أن تمهد لقصة حب بيننا ورأت أن تكون بهذه الطريقة لأنها، تلك اليد، تعرف أي نوع من النساء أنا؟.. أم أن كلام فاطمة حول انقطاع دورتها الشهرية هو الذي دق جرس الإنذار في دماغي فأردت أن أمسك بزمني المبعثر وألمّه وأتزوج لأنجب قبل أن أمضي إلى الزوال.

Twitter: @ketab_n

انتشلتني هند من لجة تساؤلاتي بصوت آمر لم أعهده بها من قبل: فترة الاستراحة انتهت يا ريام، اتركي الكلاب واتبعيني لغرفة الخياطة، ربما من تلك اللحظة بدأت أفقد اهتمامي بالخياطة وسأعمل شيئاً فشيئاً على إخراجها من حياتي.. كانت هند قد طلبت من فاطمة أن تذهب بدلاً عنها إلى المحل إذ عليها أن تكمل فستاناً كانت قد بدأته لإحدى الزبونات حين رأت شبيهه في المحل وكان خاصاً للعرض فقط، دخلت إلى الغرفة وأنا أقول لهند: ألا تلاحظين أن الكلبة الأم لم تعد تنزل إلى حديقتنا؟ لم تنظر اليّ حين ردت: ربما وجدت كلباً تتزاوج معه لتنجب المزيد من الجراء.. شعرت بشيء من الحزن يتسلل إلى قلبي جعلني أقول بيني وبين نفسي: حتى الكلاب تمارس حريتها بالتزاوج وقت ما تشاء وتنجب أطفالها ولا يكلفها ذلك أكثر من زاوية صغيرة في هذا العالم الواسع، وبينما أنا أفكر بذلك تقطع هند على الاسترسال وتكرر علي التعليمات كأنني مبتدئة بالعمل، أشعر بالامتعاض من تعليماتها المكرورة وأواصل العمل بكثير من الصبر عليها، ثم نصمت صمتاً طويلاً، ولكي أطرد إحساساً بالخوف داهمني لئلا أرى أمي هي التي تجلس معي وليست هند فقد رحت أغني، هي المرة الأولى التي أغني فيها وأنا أعمل، وتعمدت أن أغني لنجاة الصغيرة لعلي أعيد إلى روح هند تلك الأيام التي كانت فيها مفعمة بحب الحياة وشغوفة بأغاني نجاة الصغيرة:

ماذا أقول له لو راح يسألني إن كنتُ أكرهه أو كنت أهواه

ماذا أقول إذا راحت أصابعه.....

وقبل أن أكمل قاطعتني هند بصوت جاف:

Twitter: @ketab_n

- قولي له أكرهك واغلقي الباب دونه.

فمازحتها قائلة:

- لماذا أغلق الباب دونه، ألا يمكن أن يكون هو النجم الذي كنت أبحث عنه طيلة ما فات من عمري؟

قالت وما تزال أصابعها تعمل:

- لا تبحثي عن الشيء، دعي الشيء هو الذي يبحث عنك ويجدك، وإذا كان لابد من البحث فلا تتعبي عينيك بالتحديق إلى السماء وإنما إلى الأرض.

لم أرفع نظري إلى هند وأنا أحاورها، وهي أيضاً لم ترفع نظرها عن الفستان الذي تشتغل عليه، آخر ما قالته هو: لم يبق إلا جناح فراشة وتثبيت الأزرار، ولم تُضف بعد ذلك أية كلمة طيلة ما يقارب النصف ساعة الأولى من العمل حتى سمعنا صوت الجرس فقلت:

- لقد جاءت فاطمة.

كنت قد تركت العباءة ووصلت عند باب الغرفة حينما قالت هند:
- الوقت مايزال مبكراً للغداء.
عندها قلت:
. إذن لابد أن يكون خالي إبراهيم أو زوجته سمية إذ لا أحد غير هؤلاء الثلاثة يأتون إلى زيارتنا.

Twitter: @ketab_n

ما إن فتحت الباب وإذا برجل يقف قبالتي، لقد عرفته قبل أن يعرّف بنفسه، دلّني قلبي عليه برغم أنني لم يسبق لي أن رأيت ملامحه على هذا النحو من القرب، رجل وسيم بوجه واضح الملامح يضع نظارة طبية على عينيه، ابتسم بوجهي وقال:

- آسف على الإزعاج، أنا جاركم هشام، أود معرفة مدى استعدادكم لتضييف كلابي مدة أسبوع ريثما أعود من السفر، وإذا لم تكن ثمة إمكانية يمكنني إرسالها إلى أحد الأصدقاء.

بينما كان جاري هشام الذي عرفت اسمه تواً يتكلم كنت أنا أضغط على مشاعر الفرح التي انتابتني وأقول مع نفسي أخيراً جاء بنفسه ليريني وجهه؟ ولما لم أرد فقد كنت أنظر إليه مثل بلهاء أصابها الخرس، قال:

- آسف يبدو أنه لا توجد إمكا....

فقاطعته كأنني أخشى أن يختفي على الفور:

. بالعكس، كلابك كلابنا، أما ترى أنها تتسلق الجدار العازل بيننا وتنزل إلى الحديقة؟

انفرشت على وجهه ابتسامة عريضة وقال:

- أعرف، تصوري أنها لا تنزل إلى بيت جيراني من الطرف الآخر.

أردت أن أقول: القلوب سواقي، لكنني تراجعت حين تذكرت أنه يتحدث عن كلابه، فقلت:

Twitter: @ketab_n

- يبدو أنها تأنس لمن يهتم بها فأنا أطعمها كلما دخلت حديقتي.

- شاكر لك هذا الكرم يا سيدة...

- اسمي ريام.

- أشكرك يا سيدة ريام.

- لا تقلق بشأن الكلاب فهي بالتأكيد ستقفز من بيتكم إلى بيتنا سواء كنت موجوداً أم لا... ولكن فاتني أن أسألك أين الكلبة الأم فمنذ أيام لم أرها؟

اختفت ابتسامته وحلت محلها مسحة من حزن وهو يقول:

- للأسف ماتت.

قلت متأثرة أنا الأخرى:

- ماتت؟ كيف؟

- دهستها سيارة مسرعة.

وبينما كنتُ أفكر بكلمات مناسبة أقولها له عن موت الكلبة تناهى إليّ صوت هند يأتي من بعيد.

. من جاءنا يا ريام؟

لم أجبها بل قلت للسيد هشام:

Twitter: @ketab_n

- هذه اختي هند، فاستأذنني بالانصراف، انصرف هو وبقيت أنا لدقائق متسمرة في المكان أنظر إلى ورود الجهنمية وأحس أن شعوراً دافئاً يسري في أوصالي ويمسّني بهدوء وحذر، عاد صوت هند ليخرجني من الحالة التي أنا فيها، هرعت إلى غرفة الخياطة بمشاعر فرح مبرر وغير مبرر، فسألتني مستفسرة بنظرة وهزة من يدها، وشرحت لها رغبة جارنا بإبقاء الكلاب عندنا ريثما يعود من السفر فعلقت بالقول بعبارة:

- هذا بطران، كلابه لا تحتاج أن يستأذن منا فهي عندنا يومياً.

قلت لهند:

. ربما أراد أن يضمن من يطعمها.

غيرت هند مجرى الكلام عندما قالت:

- ها قد انتهيت من الفستان، لم يبق إلا أن أكوي الأجزاء المجعدة منه.

وأثناء ما كانت تكوي الفستان رحت أنا أعيد على نفسي الحوار الذي دار بيني وبين جاري هشام، وأعيد تفاصيل وجهه، وجه أسمر وعينين صغيرتين ومعبرتين تختفيان وراء نظارة طبية، صوت هادىء، قامة طويلة، وثياب متناسقة الألوان تدل على أنه رجل يهتم بالأناقة، كنت أتمنى أن أقف معه وقتاً أطول لأعرف ماذا يعمل ولماذا يعيش بمفرده لولا صوت هند الذي قطع عليّ فرصة رتبتها اليد الخفية التي تدير هذا الكون.. وكان ثمة صوت في أعماقي يردد: لا تضيعي الفرصة.

Twitter: @ketab_n

أخرجتني هند مما أنا فيه حين قالت وهي تمسك بالفستان:

- ما رأيك؟

نظرت، إلى الفستان بإعجاب، فستان طويل من الشيفون بلون أزرق متدرج إلى البنفسجي والوردي، مؤلف من قطعتين، الأولى تشكل الصدر، والثانية تشكل التنورة التي تنزل بانسيابية حتى الأقدام، يفصل بينهما حزام أزرق مطرز بالخرز سبق لفاطمة أن اشتغلت عليه، وفتحة الصدر دائرية محاطة بشريط من الساتان الأزرق الغامق..قلت لهند:

- مدهش حقاً، عاشت أصابعك.

علّقته على المشجب وراحت تتأمله ثم زفرت آهة طويلة لم أشأ أن أسألها عنها، فأنا أعرف إلى ماذا ترمي تلك الآهة بعد كل فستان أو عباءة تنتهي منها، إن آهتها تقول لوكانت أمي معنا لترى ما تصنعه أصابعي، وخشية أن تأخذها الآهة إلى حالة أخرى قلت لها: شفتي يا هند، كنتُ أرغب باقتناء أحد الجراء وها قد تحققت الرغبة بأربعة.

سألتني هند مستنكرة:

- هل طلبتِ من جارنا أحد كلابه؟

- كلا يا أختي إنما أقصد أن الأمور أصبحت متاحة بشكل طبيعي، فعندما تفتقد الكلاب صاحبها ستلجأ إلى من يعتني بها وتتودد له.

Twitter: @ketab_n

زمّت هند شفتيها ثم قالت:

- ما بك يا ريام، لم أعرف أن لك اهتماماً بالكلاب من قبل؟

أحسست أن وراء كلماتها كلمات أخرى، فقلت كأنني أدفع تهمة عن نفسي:

- شوفي يا أختي، ليس بي غير الرأفة بهذه الحيوانات الأليفة الأوفى بين كائنات الأرض، أما صاحب الكلاب فلا أعرف عنه شيئاً لكنه يبدو رجلاً محترماً، طلب مني أن آوي كلابه فلم يكن أمامي إلا القبول لأنني حقاً أحببت الكلاب.. لا شيء أكثر من هذا.

وبرغم أن هند أرادت أن تعرف ما ينضوي في قلبي إلا أنها قالت:

- أنا لم أسألك عن صاحب الكلاب، وإذا سألتُ فهذا مبرر، أنت تعلمين بأننا نساء نعيش وحدنا في هذا الزمن الصعب ولذلك فالحذر يصون كرامتنا في مثل هذه الظروف.

طمأنتها بالقول:

- لا تخافي عليّ فأنا لا يمكن أن أتهوّر.

لم أعد تلك الصبية التي تهرب مع حبيبها إلى المقبرة الانكليزية لتكتشف أولى خفقات القلب، ولا تلك الشابة الباحثة عن كل ما هو غامض لتفتح الأبواب المغلقة، أريد فقط لرماد جسدي المسكين أن يتحرك، أن يستعر ويلسعني لأحس بوجودي، أن يعيد إليه فقط لهفة تلك الصبية التي

Twitter: @ketab_n

يخفق قلبها بشدة إذا سمعت كلمة غزل حتى لو كانت كلمة عابرة، وحلم تلك الشابة التي تندفع كما الريح وتتلذذ بالانتظارات الطويلة، إنني أفتقدني، أفتقد نكهتي وطعم شقاوتي بل وحتى وقاحتي، وأفتقد الرجل ذا القلب الحنون في حياتي، الرجل الذي يكون ما بقلبه على لسانه، الذي يريني الجانب المشرق من الحياة ولا يتركني للتكهنات والزوايا المعتمة والتحديق في نجوم الليل، فأين أجدني وأين أجد هذا الرجل؟ أنظر أحياناً إلى المرآة وأتأمل وجهي الساكن، أتساءل أين يمكن أن أكون قد فقدتُ العينين الماكرتين واللهفة الحارقة؟ وأين ريام المندفعة التي أعرفها؟ وكيف تهيّأ لي أن أكتم هياج جسدي فلا يقلقني في ساعات الليل، أين براكينه وهيجاناته؟ منذ متى وطنت نفسي على السكون وتغاضيت عن نداءات قلبي؟ هل يمكن أن أكون قد دفنت رغباتي دون أن أدري؟ وهل ستنتهي فصول حياتي في هذا البيت القديم بذكرى هنا وذكرى هناك؟ لماذا لا تتساقط أوراق الذكريات القديمة فتجدد شجرة رأسي أوراقها بأخرى نابضة بالحياة؟ أنا لا أريد لجسدي أن يتحوّل إلى صفيح بارد لكنني أيضاً لا أريد أن أندفع لمجرد الشعور بحاجتي لرجل، وإذا قمتُ بمغامرة فماذا سيكون طعمها؟ صحيح أنني لا أنوي القيام بمغامرة غير محسوبة مع أي رجل، لكن جاري هشام يبدو مهيّأً لخوض غمار تلك المغامرة، لا يمكنني الجزم بأنني أحببته، بل يمكن أن أقول بانه يروقني، نعم، هذه هي الكلمة المناسبة حتى هذه اللحظة وأنا أسترجع وجهه، لقد اطمئن قلبي إلى ملامحه وارتاحت أحاسيسي إليه، رجل لا يخفي وراء عينيه أشياء غامضة، لقد أنهكتني الأشياء الغامضة، لكنني يجب ألا أتسرع، فقد يكون اجتيازي الثلاثين ببضع سنوات جعلني أخشى أن يمضي قطار العمر ولا يترك لي محطة أقف فيها لكي أصل إلى أعماق

Twitter: @ketab_n

روحي، ثم أين جاري الآن وهل سيعود حقاً بعد أسبوع، أم أن كل الرجال الذين أعرفهم محكوم عليهم بالغياب؟

هذا ما قلته لنفسي وأنا أطوي ليلة طويلة سهر معي فيها الأرق حتى ساعة الفجر الأولى، وعندما صحوت كان ضوء الصباح قد انهمر وأنا لما أزل في السرير أحاول الإمساك بأطراف حلم هارب ولمّا غاب تماماً ولم أتذكر منه سوى وجه أمي المنسحب إلى ضباب كثيف فقد نفضتُ نعاسي عن أهدابي ونزلت من السرير أتثائب، كانت فاطمة تعد الفطور، تبادلت معها تحية الصباح وأخبرتني بأن هند ذهبت إلى المحل والساعة الآن هي العاشرة إلا ربعاً.. إنها تعني بأنني تأخرت على العمل، نحن عادةً نبدأ العمل في العاشرة، قبل ذلك أقوم أنا بتفقد الكلاب ووضع الطعام لها، ثم نفطر ونغسل الصحون ونمسح البلاط.

تناولت فطوري على عجل، شاي وكاهي بالعسل، وكانت فاطمة قد سبقتني إلى غرفة الخياطة.

**

في اليوم التالي قالت هند ونحن على مائدة الفطور: حلمت ليلة أمس بأمي وقد دخلتْ غرفة الخياطة تبحث عن شيء، وفي الوقت الذي سألتها عن ماذا تبحث وجدتها قد اهتدت إلى ذلك الشيء وهو عباءتها، قالت بنظرة عتب: لماذا لم تكملي خياطتها؟ فقلت لها في الحلم بأنني أنوي أن أفعل ذلك قريباً، لكنها لم تصدقني، أخذت العباءة وجلست على الكنبة طالبة مني عدة الشغل لتكملها ثم لما ناولتها ما تريد راحت أصابعها تعمل بسرعة غير اعتيادية فاكتملت العباءة ولبستْها ثم خرجت إلى الحديقة

Twitter: @ketab_n

وقطفت أزهار القدّاح لتصنع منها إكليلاً طوقت به رأسي، ومن الغريب أن الفراشات المرسومة على العباءة كانت تنفصل عنها وتطير حول أمي ثم تعود وتستقر على العباءة وتطير ثانية، وهكذا تطير وتعود حتى استيقظت من النوم... كنت وفاطمة منشدتين إليها وهي تروي لنا الحلم، وما إن انتهت حتى قالت: هذا يعني أن أمي تريد أن أكمل خياطة العباءة، فقلت لها: كما تشائين، ردت عليّ مُصححة: كما تشاء أمي، فقلت لها: ولكن لا نبيعها، ردت: وهو كذلك.

وبعد أن ذهبت هند إلى العمل وانشغلت فاطمة بترتيب غرفة الخياطة داهمني شعور بأن هند ربما تكون قد فبركت حكاية الحلم لكي لا تجد مني اعتراضاً كما في مرات سابقات فتكمل العباءة، وفي كل الأحوال، سواء كانت قد حلمت فعلاً أم فبركت حلمها فإكمال العباءة أفضل من أن تبقى مركونة كل هذا الوقت.

لم نستطع العمل على الماكنة طيلة النهار فقد واصلت الكهرباء انقطاعها أكثر من الوقت المبرمج لها، ولكي لا تبقى أيدينا عاطلة فقد تركز العمل على التطريز، أنا أطرز بالخيوط قلوباً حمراء على صدر إحدى العباءات وفاطمة تطرز بخيوط البريسم عصافير صغيرة على أكمام إحدى الجلبيات، وتعيد عليّ ما فات من قصتها مع اكتمال العصفور الأول:

- تصوري يا ريام، لم تعد في رأسي ذكريات عن زوجي المفقود، كأن رأسي لم يحمل يوماً إلا آخر لقاء بيننا وكان سريعاً، فقد جاء مع جندي آخر ليسلم جثة أحد الشهداء إلى أهلها، وكان مهموماً بعد أن وصل إلى البيت، وكل ما قاله في ذلك اللقاء كان عن ذلك الشهيد الذي كان يأمل بالزواج من ابنة خاله في الإجازة القادمة.. وجهه في تلك اللحظات التي كان يحكي

Twitter: @ketab_n

فيها عن الشهيد كان معصوراً ولاحظت عليه علامات يأس وخوف، حتى شهيته للطعام كان قد فقدها، بقي ثلاث ساعات وبعدها جاء الجندي الآخر ليذهبا إلى الجبهة، كان ذهاباً لا عودة منه.

كانت فاطمة تحكي عن زوجها دون أي نبرة حزن في صوتها كما لو أن السنين امتصت كل عذاباتها ولم يعد للحزن مكان في قلبها، بعد ذلك أخذنا الحوار إلى مديات أخرى بدأتُه بالقول:

- أنا مؤمنة أن كل ما يعترضنا في الحياة مرسوم سلفاً.

ردّت على كلامي محتجة:

- إذن علينا أن لا نُتعب عيوننا بهذا العمل المرهق بل ننتظر سّلة الأقدار تُنزل لنا معوناتها من السماء.

قلت لها:

- لا يا عزيزتي، ليس هذا ما أقصده، بل أعني ما دام العلم عاجزاً حتى الآن عن فك طلاسم الحياة والموت فعلينا أن لا نستكين بحجة أن الأقدار محددة قبل أن نولد لأن الصراع بيننا وبين ما نسميه الأقدار لا يتوقف وعلينا نحن أيضاً أن لا نتوقف.

قالت وهي منهمكة بتطريز العصفور الثاني:

- أنا دائمة التساؤل، لماذا منحت الأقدار للبعض حياة مرفهة ومنحت البعض الآخر التعاسة وسوء الطالع؟

Twitter: @ketab_n

قلت:

- ربما لحكمة لا يعلمها إلا الله.

ردت:

- هذا منطق العاجزين.

قلت: ليس لديّ جواب إذن، فنحن نخوض بأمور يستعصي فهمها، وأعتقد أننا نساهم مع الأقدار برسم مسارات حياتنا دون أن ندري.

سألت فاطمة:

- كيف؟

أجبتها:

- أنتِ مثلاً، كان يمكن أن تتمسكي بالخلاص من رابطة فقدت سبب استمرارها، فالقانون يحدد فترة زمنية للطلاق في مثل حالتك لكنك رضخت لإرادة العائلة وضيعتِ الكثير من الفرص. قالت وهي تنتهي من العصفور الثاني:

- هذا صحيح وأنا الآن نادمة لكن ماذا ينفع الندم؟

وفاجأتني فاطمة وهي تسألني:

- وأنتِ يا ريام، ما الذي جعلك تعزفين عن الزواج؟

Twitter: @ketab_n

تركتُ القلوب الحمراء جريحة على القماش وقلت لها:

- أنا لم أعزف عن الزواج، لكنني بقيت أحلم برجل لا وجود له إلا في الخيال.

لم أجد الرغبة أن أحكي لفاطمة عن نجم، بل حتى بيني وبين نفسي لا أرغب بإعادة حكايته، لقد شطبته من رأسي، وعندما أجدني أحياناً في رحاب جنته الضائعة أخرج منها فوراً لئلا تقذفني إلى الجحيم، وأردت الخروج من دائرة الأسئلة لكن فاطمة عادت لتسأل:

. لا أفهم كيف تحلمين برجل لا وجود له؟

قلت لها:

- عادة نتأثر بأبطال لأفلام والروايات التي نقرؤها ونريد أن نلتقي رجلاً على شاكلتهم لكننا لا نلتقيه ولما يكون الأمر متعذراً تكون السنين قد فاتت.

كانت فاطمة قد انتهت من تطريز العصفور الثالث حين قالت:

- لا يا ريام، أنتِ مازلت صغيرة ومن حقك أن تعيشي حياتك، ألم تلوميني قبل قليل لأنني أضعت الفرص؟

قلتُ وأنا أحثها على العمل ولأنهي هذا الحوار:

- إذن لأقل بأنني بانتظار الفرصة، وحتى تأتي عليك الانتباه لئلا تطير العصافير.

Twitter: @ketab_n

انتهى الأسبوع الذي حدده هشام، ولم يعد، قلت مع نفسي بأن تأخير يوم أو يومين أمر طبيعي، ثم مرّت ثلاثة أيام على الأسبوع، كان عليّ أن أسأله ما هو عمله وإلى أي بلد كان ينوي السفر، لكن مفاجأة طرقه الباب جعلتني أنسى، والكلاب تقفز من حديقتنا إلى بيته ثم تعود، ربما تريد أن تتفقد صاحبها ولما لم تجد فإنها تقفز ثانية وتعود إلى الحديقة بعد أن تشعر بالجوع، وقد شغلني أمر جاري بعد أن مضت أيام أخرى ودخل غيابه الأسبوعين عندها انهمرت أسئلة هند:

- هل عاد جارنا من السفر؟

- كلا.

- كيف تعرفين إذا كانت الكلاب بوجوده أو بغيابه تأتي إلى حديقتنا؟

- لأنه لو كان قد عاد لجاء وشكرني على رعاية كلابه.

. ألم يقل بأنه سيغيب مدة أسبوع؟

لم أجد إجابة غير المثل الذي لا إجابة عليه:

- الغايب حجته معه.

كانت هند منهمكة بأجنحة الفراشات على عباءة أمي، وفاطمة تعد وجبة الغداء في المطبخ، وأنا مرتابة من شيء يقلقني ولا أعرفه، هل هو غياب جاري الذي انشغلت به منذ رأيته أم تصرفات هند منذ الصباح عندما قطفت أوراق الآس لوضعها في دورق على النار لكي ينتشر عبقها في البيت

Twitter: @ketab_n

كما كانت أمي تفعل من قبل، ولم تكتفِ بذلك بل راحت تردد بصوت شجي أغنية عفيفة اسكندر بعيونك عتاب، وأنا أحاول أن لا أنظر إليها لئلا أرى هيأة أمي على جسد هند، وبالتالي تتمكن مني تلك الحالة فلم أعد أعرف حدود الوهم من حدود الواقع.. لكن عندما سألتني عن جارنا هشام اطمأن قلبي في جانب منه وبقي الجانب الآخر قلقاً.

وعلى مائدة الطعام كررت فاطمة اقتراحها السابق بشأن التطريز على الماكنة مبررة ذلك ليس فقط بسرعة الإنجاز وإنما لأن نمط الحياة قد تغير فلم تعد المرأة تهتم بأناقتها، والقدرة الشرائية انخفضت إلى مستويات كبيرة وأفراح الناس بدأت تتقلص تبعاً لمجريات الأحداث التي تمر بها البلاد حيث الغيوم تتكاثف والأغاني الوطنية تصدح واللون الخاكي يزيح الألوان الأخرى والحياة تتعسكر.. وجدت فاطمة تأييداً مني إلا أن هند وبرغم أنها قالت لفاطمة أنت على حق فيما يخص تغيير نمط الحياة إلا إنها أردفت: لكنني يا فاطمة لا أستطيع لأنني مازلت أعتقد أن ذلك يُعد خيانة لذكرى أمي.

شعرت بامتعاض مما قالته هند، فالتمسك بذكرى أمي لا يعني أن نستنسخ تجربتها طوال حياتنا، لذتُ بالصمت لأن أية مناقشة مني مع هند بهذا الموضوع ستولّد احتقاناً بيننا،على الرغم من أن صمتي إزاء سلوك هند يفقدني شخصيتي شيئاً فشيئاً.. وعندما انتهينا من وجبة الطعام قلت:

- سأذهب أقيّل في غرفتي وأترك الخياطة لكما فأنا متعبة.

Twitter: @ketab_n

سألتني فاطمة:

- تقيلين أم تكتبين في روايتك؟

وقبل أن أجيبها ردت هند بتهكم:

- أظنها تخربش يا فاطمة، أية رواية هذه التي تكتبها؟

بقيت صامتة فقالت فاطمة كأنها لم تسمع رد هند:

- لا تنسي ياريام الوعد الذي بيننا.

سألتُها مستفسرة:

- أي وعد؟

فتحت عينيها على سعتهما كما تفعل في كل مرة تستغرب فيها أمراً:

- وعدك لي أن تكتبي قصة حياتي.

كدت أعترف لفاطمة بأنني أكتب عنها أيضاً، إلا أن قهقهات هند أوقفتني، بعد ذلك قالت بنبرة ساخرة موجهة الكلام لفاطمة:

- يبدو أنك أخذت الأمر جدياً، ريام تخربش وتشخبط لتفريغ شحنات نفسية لم تستطع تفريغها بالخياطة.

لم أعلق بل شعرت بالغيظ وكدت أفقد أعصابي، إلا أنني كظمت غيظي وأمسكت بأعصابي لئلا أتسبب بزرع بذرة للخلاف بيننا ربما تنمو وتعرّش

Twitter: @ketab_n

على قلبينا وعندها لا يمكن العودة إلى الوراء لقلع تلك البذرة..صعدت إلى غرفتي وارتميت على السرير لكنني لم أنم، كان انزعاجي مما قالته هند قد اتسع وشعرت بانقباض في قلبي، ثم اجتاحتني ذكريات قديمة وهواجس مستعصية على الفهم أحاطت بي وسرقت النوم من عيني، رحلتُ إلى أزمنة لم يعد لها إلا الصدى الذي حين يأتي يُثقّب روحي، خطر ببالي ريحان وأحسست بأنه زمني البريء الذي سأظل محتفظة به حتى يومي الأخير في الحياة، وغرقت في ذكرى نجم الذي ظننت بأنني شطبت على ذكراه، فتمنيت أن أصحو ذات مرة فلا أجد له أثراً في رأسي، وتذكرت تلك الطفلة التي كانت تتسلل وتختبىء تحت السرير لترى العجب فوق سرير أبيها، وأزعجتني جدتي مسعودة وأنا أستعيدها من غيابها لتعيد على مسامعي معاركها مع أمي، ولم أجد مكاناً لأبي إلا بما يشبه رجلاً على أهبة سفر حمل حقيبته ومضى دون أن يودع عائلته أو يقول كلمة طيبة، كما أنني طردت وجه عمي وسامي زوج هند فلم أدعهما يمكثان، وراعني الانتقال إلى مشهد انتحار صابرين فرأيتها مسجاة في البانيو بعينيها المرعوبتين، وكدت أجهش ببكاء حاد لولا أن أمي حطت على طرف السرير، كدتُ أسمع أنفاسها وألمس ردن ثوبها، هدهدتني قبل أن تسقط دموعي وهدّأتني وأشارت لي أن لا أحزن فنحن جئنا إلى الدنيا مثل ضيوف وسيرحل كل ضيف بعد انقضاء فترة إقامته وعلينا أن نتمتع في الحياة، وخرجتُ من رؤيا أمي إلى عبارة تذكرتها من قراءاتي، منقوشة على شاهدة قبر الشاعر القديم آرابيوس:

أيها المار من هنا
كما أنت الآن كنتُ أنا
وكما أنا الآن ستكون أنت
فتمتع بالحياة لأنك فان

Twitter: @ketab_n

لكن كيف أتمتع بحياتي، أي باب أفتح لكي أستدل على لذة المتعة؟ أين أجدها تحديداً والأبواب كلها موصودة دوني؟ في العمل الذي أقوم به؟ أم بنكهة الطعام الطيبة التي أفضلها؟ بالزواج والإنجاب أم بالحب الذي لا يستقيم معي؟ بكل الذي مضى أم بما سيأتي؟ وما الذي سيأتي؟ وكم سيكون عمري مع الذي سيأتي؟ ومتى سيعود جاري هشام، أشعر بأنني أفتقده.... وكلابه تفتقده أيضاً، تقفز في اليوم مرات ومرات ثم تعود، وأرى في عينيها انكساراً، تنظر إليّ كمن يسأل متى يعود صاحبي، فأمسد لها شعرها وأطمئنها بالهمس لها بأنه سيعود.. ولما استعصت عليّ القيلولة نفضت ما علق بي من ذكريات وتذكّر وهرعت إلى أوراقي لأكتب كل هذه الشجون.

**

أراوغ الوقت قبل أن يدركني، أنكب على الكتابة كأنني أبحث عن نفسي بين السطور وأجدها تلهث فألتمس من بقية الصبر الذي لدي بعض الهدوء، والسطور تتوهج وتخبرني بأشياء كثيرة كان عليّ أن أدونها لكنني إما أكون قد نسيتها أو تجاهلتها، وتضع أمامي علامات استفهام كثيرة من مثل: لماذا أسقطتُ حكاية فيّاض صاحب مكتبة المفتاح الذي كنت أشتري منه الكتب فيعطيني إياها بأسعار مخفضة ثم صار يلح عليّ باقتنائها مجاناً أو بإعارتها، وكنت أعرف بأنه يتودد لي فأقابل مودته بالابتسام وبالزيارات المتكررة حتى وإن كنت لا أحتاج إلى كتاب؟ فهو رجل مريح التقاطيع ومعه أحس بأنني أزداد معرفة بعالم الكتب، لكنني أعرف بأنه ليس الرجل المناسب الذي يمكنني أن أقيم معه علاقة حب أو ارتبط وإياه بالزواج.

Twitter: @ketab_n

دعاني مرة إلى موعد فتمنعت وتمنيت أن يلح عليّ لأستجيب، كنت بحاجة لمن يسمعني فقد كنت أمر باضطراب عاطفي بعد غياب نجم قبل أن أعرف من السيد مختار ما آلت إليه حاله بعد فعلته الشنيعة، لكن فيّاض لم يلح، لم يكن من النوع الملحاح، وبهذا ترك لي مساحة ضيقة للتساؤل أي نوع من الرجال هو؟ وفيما بعد، لما تعذر اللقاء بيننا خارج المكتبة سمحت لنفسي أن أشرب القهوة معه داخلها وعندما قدم لي ذات مرة شراب النومي بصرة وأثنيت عليه صار يقدم لي هذا الشراب في كل مرة، وأثناء ذلك يحكي لي عن عالم الكتب وعن أحواله.. وها أنا أفرد له مساحة في هذه الأوراق وإنْ جاء دوره متأخراً، ففي إحدى زياراتي للمكتبة أفاض بالحديث عن زوجته المريضة بالصرع ومعاناته معها بالمراجعات الطبية منذ تشخيص المرض الذي مرّ بمراحل في المستشفيات والعيادات الطبية وما رافق ذلك من أشعة مقطعية ورنين مغناطيسي وحتى العلاج بالأدوية المضادة، بدا يائساً وهو يحدثني عن مرض زوجته لما يسببه له من قلق أثناء خروجه من البيت ولذلك يضطر كلما خرج أن يوكل مهمة رعايتها ومراقبتها لأحد أفراد أسرته وغالباً ما تكون اخته هي التي تعتني بها إذا ما داهمها المرض وسقطت مغشياً عليها.

فياض رجل في أواخر الأربعين من العمر ذو ثقافة واسعة اكتسبها ليس فقط من دراسته وإنما من أمهات الكتب المصفوفة على رفوف مكتبته المكونة من طابقين، وهو بالأساس باحث وله دراسات متخصصة في علم الاجتماع منشورة في بعض المجلات زوّدني ببعضها، وسألته مرة فيما إذا كانت له كتب صادرة فأجاب بأن له مخطوطة كتاب رفضته الرقابة، ولما استوضحته عن موضوع الكتاب ولماذا رُفض قال إنه كتاب عن البغاء في التاريخ العربي، فأبديت ملاحظتي بالقول: ربما كانت الرقابة على حق

Twitter: @ketab_n

فالحرية ليست دائماً مقبولة ونحن شعوب محافظة، لكنه قال لي ما جعل قناعاتي تتخلخل: إننا شعوب لا تريد كشف عوراتها المخفية، تمنع ما تمارسه عبر التاريخ، وتتشدق بعكس ما هي عليه، وإننا من أجل أن نفهم ما نحن عليه يجب الغوص في ذلك التاريخ الذي نحاول طمره تحت ركام من الإنكار والتبجح، وأخبرني أيضاً بأنه يعمل منذ ثلاث سنوات على كتاب بعنوان (وجدت الله) فأسرعتُ دون تفكير للسؤال: وهل وجدته فعلاً؟ ابتسم وأجاب: مازلت في طور البحث ولا يمكن الإجابة بنعم أو لا برغم أن العنوان يشي بذلك، إنه دراسة معمقة أتتبع من خلالها كل من راودته فكرة البحث عن الله، وما إذا كان وجوده لا يتعدى الإحساس به أم يكون وجوداً من نوع آخر ، ومن ثم أبحث عن طريقة للوصول إليه، إنها رحلة أمشيها ولكن ليست على الأقدام وإنما رحلة بأحاسيس روحية كلية خالصة وبعيدة عن فلسفات الأديان التي عرفناها أو الأفكار المسبقة التي تبنيناها.. وسألته: هل باعتقادك ستصل، وإذا وصلت فهل تعتقد بأنك ستجد الله وجوداً مادياً؟ أجابني: مادامت لله روح فلابد أن يكون له وجود، وهذا الوجود يعني شيئاً نلمسه أو نراه، نحن ندرك بأن أبصارنا لا تدركه في عظمته لأنها مقننة ومحددة بمساحة النظر، لكن يمكن لهذا النظر أن يصل إليه إذا ما خلّصنا نفوسنا من حالة الشك وجعلناها خالصة لله.

سألته: ألا تعلم بأنك في مسعاك هذا تمشي في غابة من الشوك، سيتصدى لك كل من جعل من نفسه وكيلاً لله على أرضه، وهؤلاء لا يريدون للعقول أن تخرج على خطوطهم الحمر؟ رد بالقول: أنا مخلوق ومن حقي أن أجد خالقي بالطريقة التي أريدها من دون وساطة أحد، يقول الحلّاج: لكل إنسان الحق باختيار الطريق الذي يوصله إلى الله، وأنا

Twitter: @ketab_n

أريد أن أجد خالقي وأراه بطريقتي.. قلت: وماذا لو وصلت إلى الخطوة الأخيرة ولم تجده؟ ردّ بالقول: أكون قد أخطأت في الطريق الموصل إليه لأن الله موجود ولا يمكن أن لايكون لهذا الكون الهائل المنسق من خالق.

وفي إحدى زياراتي لمكتبته قال لي بينما كان شراب النومي بصرة بيننا نرتشفه ونتبادل الكلام بأن في عينيّ حزناً مُخبّئاً وراء ابتسامة كاذبة، فاتسعت ابتسامتي وقلت له أخذلك لو قلت لك بأنني سعيدة، أنا أعاني من غربة برغم أن لديّ أسرة رائعة، ووجدتني أحكي له عن أمي ومهنتها التي انتقلت إلينا نحن بناتها الثلاث، وعن وفاة صابرين، لم أقل له بأنها انتحرت لكي أوفر على نفسي الدخول في التفاصيل التي لا أريد لها أن تعرّش على قلبي مرة أخرى، وقال بأن الإنسان محكوم عليه بالغربة منذ ولادته، يأتي إلى الدنيا غصباً عنه ويرحل عنها دون رغبته، وعرجت على حكايتي مع نجمي الغائب حتى ذلك الوقت فقال لو كان يحبك فعلاً لما غاب كل هذا الوقت دون أن يترك لك خبراً، كان قد مر شهران في ذلك الوقت على غياب نجم، إلا أنني دافعت عن نجم بحرارة وقلت لفياض بأنه يحبني فعلاً لكن ثمة سراً لم أفهمه فيه، عندها قال بأن الوضوح سمة المحبين واحذري الرجال الغامضين، وفي آخر زيارة لي للمكتبة أخبرته بما حلّ بنجم وأظنني لمحت وراء عينيه فرحاً حاول أن يغطيه بانتقالات سريعة إلى رفوف الكتب، يستل هذا الكتاب ويعيده ثم يستل آخر ويقول لي دون أن ينظر في عيني: هذا كتاب مهم عن صراع الحضارات قد ينفعك.. ولم أصرح له بان الصراع الأكبر هو مع نفسي لكنني قلت له: لا أجد رغبة في قراءة هكذا نوع من الصراعات أتمنى أن أقرأ كتابك المخطوط عن البغاء وتقرأ روايتي، عندها التفت إليّ، سألني والدهشة في عينيه: لم تخبريني بأنك تكتبين رواية، فاستدركت: إنها في الحقيقة

Twitter: @ketab_n

يوميات قد تصلح أن تكون رواية، كنتُ أكتب بعض الخواطر وأنشرها في مجلة الجامعة قبل أن أكتب هذه اليوميات، أبدى استعداده لقراءتها، وكررت عليه رغبتي بقراءة كتابه المخطوط عن البغاء.. وقبل أن يرد على طلبي دخل رجل سبعيني يبدو أنه على علاقة به، تصافحا بحرارة، واستأذنت بالخروج من المكتبة بعد أن قلت لفياض: سأمر عليك في وقت لاحق.. ولم أمر عليه لا في وقت لاحق ولا في أي وقت.. كانت أمي في هذه الفترة قد ماتت.

وحينما أستذكر فياض في هذا الوقت أسائل نفسي: لماذا لم أجعل من هذا الرجل صديقاً وأنا في أمس الحاجة إلى صديق بمثل ثقافته وخبرته في الحياة؟ هل كنت تحت تأثير ما انتهت إليه قصتي مع نجم وتركت في نفسي جرحاً عميقاً يحتاج إلى وقت طويل لكي يشفى، أم تعاطفي مع حالة زوجته المريضة، أم أنني وقتها شعرت أن مجرد ارتباطه بامرأة يُعد خيانة لزوجته وأنا لا أحب الرجل الخائن؟ فمن يخون مرة سيخون مرات، تماماً مثل من يقتل مرة سيصبح القتل وسيلة سهلة في مرة قادمة.. أم لكل الأسباب التي ذكرتها؟

أظنني الآن، بعد أن باعد بيننا الزمن يمكنني أن أرى الأمور بشكل أوضح، ففي ذلك الوقت كان قلبي هو الذي يختار وكنت أتبعه ويبدو أن قلبي كان له رأي آخر، وأنني كنت في جانب من أعماقي أريده وفي جانب آخر أرفضه، ومادمت متأرجحة فقد أخليت أعماقي منه بغض النظر عن كل الأسباب التي ذكرتها آنفاً، ولم أكن موفقة بالمقارنة بين الخيانة والقتل في مثل حكاية فياض، فالرجل يريد أن يعيش حياة طبيعية مثل باقي الأزواج،

Twitter: @ketab_n

ويكفيه أنه تحمل مرض زوجته سنوات طوالاً.. ترى أين هو الآن، وماذا حلّ بزوجته؟ وهل وجد الله أم أخطأ الطريق في الوصول إليه؟

في هذه اللحظة وأنا أنتهي من تساؤلاتي شعرت برغبة ملحة لرؤيته، لكنني وقفت على ضفاف تلك الرغبة ولم أغامر بالدخول إلى نهرها، تغلب الإحجام لردعها على الإقدام للمضي فيها، ربما يحين وقت آخر أكون مهيأة فيه بكامل مشاعري.

بعد شهر وأربعة أيام على غياب جاري هشام سمعت نباح الكلاب، نباح محموم كأن أمراً خطيراً قد حدث، وتناهت إلى مسامعي أصوات قادمة من بيته، أصوات رجال، كان الوقت قبيل الثامنة من صباح كثيف الحرارة، كنت قد خرجت تواً إلى الحديقة لأتفقد الكلاب وأضع لها الطعام فلم أجدها حتى سمعت نباحها وأصوات الرجال، هرعت إلى غرفتي لأرى من نافذتها ماذا يحدث، كانت هند قد خرجت تواً من الحمام تنشف وجهها، سألتني وهي تراني أتسلق الدرجات بسرعة: مابك؟ قلت دون أن ألتفت: لا شيء.. وحينما سحبت الستارة رأيت كلاب جاري في حديقته تواصل نباحها باتجاه الرجال الذين لم أرهم حتى هذه اللحظة، وما تزال الأصوات تأتي من داخل البيت دون أن أفرزنها، باب البيت الخارجي مفتوح ومن خلال فتحته شاهدت سيارة شرطة وبعض الجيران يتابعون ما يجري، وبعد قليل خرج من البيت أربعة رجال، أحدهم شرطي والثلاثة الباقون بملابس مدنية، عرفت أحدهما وهو مختار المحلة، الرجلان الآخران يحملان مجاميع كتب وملفات.. أسرعت ونزلت الدرج وكانت فاطمة تعد الفطور، وهمّت بالكلام إلا أنني تجاوزتها، وركضت باتجاه الباب الخارجي وفتحته، كان الشرطي قد صعد إلى السيارة وكانت

Twitter: @ketab_n

سيارة مدنية أخرى خلف سيارة الشرطة توجه لها الرجلان بحمولة الكتب، بينما المختار وقف قرب النافذة الأمامية للسيارة المدنية يتحدث إلى أحد الرجلين، وبعد دقيقة غادرت السيارتان بسرعة فائقة، وجاء المختار ليمر بالقرب مني قاصداً بيته، وكما لو أن الصوت الذي خرج من حنجرتي ليس صوتي سألته: ماذا حدث؟ نظر إليّ بوجه معصور وقال: جاركم مطلوب للجهات الأمنية وهو هارب منذ أكثر من شهر فجاءوا لتفتيش بيته، وبالصوت ذاته سألته: ما هي تهمته؟ أجاب بامتعاض: تهمة سياسية، ولم يترك لي فرصة أن أستفهم أكثر فقد واصل طريقه إلى بيته.

أغلقت الباب بقوة كأنني أغلق أبواب قلبي، وانتابتني رغبة بالصراخ، أريد أن أصرخ ملء حنجرتي، أصرخ بوجه العالم، بوجه الشرطة ورجال الأمن والمختار، بوجه هند التي تختلط ملامحها بملامح أمي وتريد أن تفرض سيطرتها عليّ برغم أن أمي لم تكن في حياتها مسيطرة.. لكنني أضعف من أن أصرخ، ارتدت صرختي إلى صدري قبل أن تخرج.. وحينما دخلت المطبخ كانت فاطمة تصب الشاي واستقبلتني هند بسؤال: شكو ماكو؟ فقلت وأنا أصطنع الهدوء بصعوبة: الشرطة والأمن داهموا بيت جارنا هشام.. سألت فاطمة: ليش؟ قلت إن التهمة سياسية بحسب ما أبلغني المختار، فعلقت هند ساخرة: سيأتون يوماً ما لاعتقال الكلاب.. ردت فاطمة: إذن علينا أن نتخلص من الكلاب، قالت هند: عندك حق فقد تعترف الكلاب بأنها كانت تنقل رسائل هدّامة من بيت جارنا إلى بيتنا، ثم التفتت نحوي وقالت ممعنة بالسخرية: لاتنسي يا ريام، اكتبي ذلك بروايتك ودعي الكلاب تبحث عن مخرج لورطتها.

Twitter: @ketab_n

لم أستطع الرد ولا يمكنني الجلوس ولا أدري لماذا أصبحت هند عدائية إلى حد السخرية مني، أبداً لم يسخر مني أحد بمثل تلك السخرية، كأن هند ليست أختي التي أعرفها، مضيت إلى غرفتي، أخذتُ أنفاساً عميقة وهدّأت نفسي، بعدها محوت صورة هند من رأسي وأخرجتُ أوراقي لكنني لم أستطع الكتابة، توقف نهر الكلام في رأسي واعترضت مجراه شوائب كثيرة، مازلت أشعر بالحنق، تركت الأوراق وتمددتُ على السرير، تطلّعت إلى المروحة المعلقة بالسقف وهي تدور، ومع دورانها كان رأسي يدور وتدور معه التساؤلات: لماذا يغيب الرجال عن حياتي بشكل دراماتيكي؟ من يلعب معي تلك اللعبة الخبيثة؟ أم أن سوء الطالع يلاحقني؟ ترى من يرسم مسارات حياتنا دون أن ندري؟ أنا امرأة على جانب من الثقافة واللياقة والجاذبية، فلماذا يختفي الرجال عن حياتي؟ كنتُ آمل أن تبدأ قصة حب هادئة بيني وبين جاري لكنها انتهت قبل أن تبدأ ولم يبق بيني وبينه سوى الكلاب التي تعرف صاحبها أكثر مما أعرف، لماذا لا تنطق الكلاب وتخبرني بأسرار الرجل الذي اختفى، وأين يمكن أن يكون قد اختفى؟

**

جاء الانقطاع الليلي للكهرباء مبكراً، بحدود الساعة العاشرة، بينما كان يبدأ من الساعة الواحدة، الفوانيس جاهزة، وكذلك الشموع التي تذوب ببطء مثل روحي في هذه الليلة الحارة من ليالي آب، هند وفاطمة قررتا النوم بدل التحديق في العتمة التي تخرمها ذبالات الشموع والفوانيس النعسانة، ذهبت إلى غرفتي لعلني أنام أنا أيضاً، وحين صاحبني الأرق وحاصرتني التساؤلات وشعرت بكرب صعدت إلى السطح، قررت النوم

Twitter: @ketab_n

على السرير الحديدي المركون في أحد الجوانب، مسحتُ قضبانه من الغبار المتراكم وفرشته، منذ كم من المواسم الصيفية لم أعد أنام على السطح؟ ها أنا أعود إليه، تمددت على السرير بقميص نوم قصير من دون أكمام، الهواء ساكن إلا من بعض النسيمات تأتي حيناً فتنعش الجسد وتغيب أحياناً فينبثق العرق من المسامات، الليل كلكل بظلمته ودفن البيوت تحت سواده، ليل قائظ وأعمى لا عيون له، موصول بنجوم السماء النائية، المدى يضيق من حولي ويتسع في السماء، نظرت إلى النجوم وهي تُبدد وحشة الظلمة بالتماعاتها الأزلية، لم أعد النجوم كما كنت في صباي ومراهقتي، ولم أتوقف عند ذكرى نجم لأبحث عنه وعن سر ما فعله، ولا أبحث عن نجم آخر، كنت في هذه اللحظة بلا متعلقات إلا من نفسي، كنت أبحث عني وعن تلك اليد التي ترسم أقدارنا، والتي يقال بأنها هناك بين النجوم الهائلة، إن صح ذلك أو لم يصح فإنني رحت أمشي بين النجوم، أبحث بين التماعاتها ليس عن نجم ضاع مني، بل عن أصابع ذلك الرسام فلعلها تعيد حساباتها وترسم لي طريقاً آخر أعرف من خلاله حدود خطواتي اللاحقة... أم أنها لعبة أزجي بها الوقت هاربة من صراخ روحي؟ فليكن، سوف ألعبها، قلت لنفسي، وما دامت الأرض تقصيني فلعل السماء تدنيني، سأختار لي نجمة وأبحر معها، نجمة سيارة لا تستقر في مكان لعلها تهديني سواء السبيل، وأثناء ما كنت أجوب ممرات السماء وأرتاد حدائق نجومها تناهى الىّ صوت أكاد أعرفه، يأتي من هناك، من البعيد البعيد الذي تختفي فيه الأسرار، وأنا أمعن وأبحر صوب النجوم باتجاه الصوت، حتى رأيتها، رأيت أمي، رؤيا لا تنتمي إلى أحلام النوم ولا ترتكن إلى اليقظة، ربما كنت بين النوم واليقظة، بدت كنقطة مضيئة واعتقدت للوهلة الأولى أن إحدى النجمات راودتها غواية النزول على سطح البيت، ثم شيئاً فشيئاً خرجت من بين ممرات النجوم،

Twitter: @ketab_n

وبدت مثل حورية تخرج من أعماق الماء، بثوب وردي شفاف ومن حولها فراشات بمختلف الأحجام وبالعديد من الألوان، تقترب شيئاً فشيئاً مني، كأن مابيني وبينها مجرد مسافة قريبة تحت مستوى النظر، ثوبها يهفهف كما لو أن الريح تدفعه ثم ما يلبث أن يستقر على جسدها المضيء وتستقر عليه الفراشات، لم تحط على أرضية السطح، ظلت على مسافة عالية لكنها واضحة ولا أشك بأنها أمي، نظرت إليّ نظرة فيها عتب مع ابتسامة مقتضبة، وأخرجت من صدرها كتاباً، فتحته وظننت أنها ستقرأ على مسامعي شيئاً، لكنها بمجرد أن أخرجته راحت تنثر أوراقه، تطايرت الأوراق وما لبثت أن استقرت على سريري، قالت عبارة واحدة قبل أن تعرج إلى السماء وتندغم بين نجومها: كفاك تحديقاً بالنجوم يا ابنتي، إن نجمك بين يديك.. وبدأت ترتفع وتلتم على نفسها حتى بدت كنقطة ضوء صغيرة، مددت يدي إليها وكانت يدي تستطيل فقبضتُ عليها كما لو أنني أقبض على ماسة ثمينة، وشعرت كأن الليل أضاء من حولي وغادرته ظلمته.

حين فتحت عينيّ إلى اليقظة التامة، لم أفكر كثيراً بما يرمز له الكتاب في الحلم لكنني اندفعت منذ تلك الليلة للبحث عن بذرة ما تزال حية في أعماقي وعليّ أن أهتدي من خلالها إلى صوتي المغيّب، وشعرت بأن ثوب أيامي الماضية لا ينفع معه الرتق ولابد من تغييره، رغبة قوية تملكتني لتجديد دمائي قبل أن تتخثر في هذا البيت بين سخرية وتسلّط هند، اندفعت لتحقيق تلك الرغبة لكي لا تأفل روحي وأنهار على نفسي مثل أية نجمة بعيدة.. وما قررته في الليل لم يمحه النهار.

Twitter: @ketab_n

لم تكن تلك الرغبة وليدة لحظتها، كنت منذ أيام طويلة أدوّر الفكرة في رأسي، خصوصاً بعد أن عرفت من فاطمة أن هند تزور زوجها في السجن، اضطرت فاطمة للاعتراف بعد ما انتهتُ أنها تذهب أحياناً بصحبة هند للمحل، مع أن واحدة منهما يجب أن تبقى في البيت، وحاصرت فاطمة بالأسئلة فطلبت مني قبل أن تبوح بشيء أن أقسم لها ألا تعرف هند أي شيء عما ستخبرني به لئلا ينفرط عقدنا فعاهدتها على ذلك، وقالت بأنها تبقى في المحل أثناء الفترة التي تذهب فيها هند للسجن، أغاظني ما تفعله هند وشعرت بأنها تخونني، لكنني لم أشأ الحنث بالقسم.. وقد قمت بلحظة صفاء مع نفسي بجرد حسابات أيامي، مع هند بكل تبدلاتها ومع العمل الذي لم يعد يبهرني، صار بعيداً جداً عن عالمي، ذهبت نكهته بذهاب الغاية التي أخذتني إليه، الثياب لا عمر لها سوى الفترات التي تستقر فيها على الجسد، لا تبقى متوارثة تحمل بصمة مصممها، وهي تتهرأ بمرور الأيام، وإذا ما جرت سنوات عمري على هذا المنوال سأنغلق على نفسي ، خيوط حياتي ستنفلت مع كل غرزة وتفقد أصابعي إحساسها بحرارة اللمس، هذا ما خلصتُ إليه حين خرجت في الصباح الباكر باحثة عن جوهر ذاتي، ركنت السيارة ونزلت باتجاه النهر، وقفت على الشاطىء بين الرمل والماء وتأملت النهر بجريانه الأزلي، تشبعت برطوبته وبالتفكير ملياً قبل تنفيذ ما دار في رأسي، خلتُ نفسي أمشي على الماء وأصل إلى الضفة الأخرى دون أن يراودني خوف من الغرق، وقبل عودتي إلى البيت اجتاحتني رغبة بزيارة السيد فياض، وهكذا مضيت إلى مكتبة المفتاح، وقفت أمام البناية وظننت بأنني أخطأتها، نظرت يميناً ويساراً، المكان هو نفسه، لكن المكتبة تحولت إلى محل للأحذية، ليس ثمة كتاب ولا صاحب مكتبة، ثم عدت إلى البيت بمشاعر مغايرة، كمن وجد طريقه بعد سنين من التيه، كانت هند تقف عند باب الصالة من

Twitter: @ketab_n

الداخل، عصبية المزاج قاسية الملامح والنظرات، كنتُ في هذه اللحظة متطامنة مع نفسي، تجاهلت نظراتها وهممت بالصعود إلى غرفتي لكنها رفعت ذراعها واستوقفتني مُطلقة العنان لعصبيتها التي كانت مكبوتة قبل أن ترفع ذراعها مثل سوط بوجهي: ألا تلاحظين بأنك ما عدتِ تعملين كما في السابق، الحياة تحتاج إلى أصابع وأصابعك تشغلينها بأمور تافهة، لم أرد فواصلت بالعصبية ذاتها: لقد منحتك بيني وبين نفسي وقتاً وصبراً لتراجعي نفسك لكنك تماديتِ، فإما أن تعيشي هنا وتعملي مثل ما أعمل وإما سيكون على إحدانا أن تترك البيت.

ما قالته هند عزز من فكرتي وسدّ الطريق أمام أية ثغرة للتراجع عما فكرت به، ابتسمتُ لها برغم قسوة كلامها وقلت: غداً سيتغير كل شيء يا أختي، فقط امنحيني بعض الوقت، ستشتغل أصابعي ولن تتوقف بعد الآن.. زمّت شفتيها وأبقت على تقطيبة حاجبيها، أنزلت ذراعها مفسحة لي الطريق للصعود إلى غرفتي، وعند منتصف الدرج نادت عليّ: لماذا غداً وليس اليوم؟ لم ألتفت، واصلت الصعود وأنا أقول: إن غداً لناظره قريب.

في اليوم التالي، بعد ليلة طويلة من الأرق قلتُ في نهايتها كفى، وضعت القليل من الملابس في حقيبة، ووضعت أوراقي التي كتبت فيها قصة حياتي في الجيب العلوي للحقيبة، تناولتُ ورقة وكتبت رسالة مقتضبة إلى هند تركتها لها على مائدة الطعام قلت فيها: لم أعد أحتمل الحياة في هذا البيت، وإن بقيت سيكون مصيري مثل مصير صابرين، إذا كان على واحدة منا أن تترك البيت فهي أنا، وداعاً يا أختي العزيزة.

Twitter: @ketab_n

لم أدخل غرفة الخياطة في ذلك اليوم، وكانت فاطمة لما تزل تعمل هناك وهند في المحل.. لم ألتفت إلى الوراء وتجنبت المرور بالقرب من الكلاب لكنها ما إن رأتني حتى انطلقت وأحاطت بي، تتشمم ثيابي، كأنها أدركت بغريزتها أننا لن نلتقي بعد الان، لم أداعبها ولم أكترث لقفزاتها من حولي.. دخلت الكراج، وضعت الحقيبة في صندوق السيارة وخرجت، راودني شعور بأن قصتي لم تبدأ بعد، ها أنا أضع قدمي على طريق البداية بعيداً عن بيت العائلة وأشباح الموتى، وأحس كما لو أنني أتجدد مثل شجرة في أول الربيع، وأن أعماقي تنفض عن عروقها كل ما يمكن أن يوقف جريان الدم في جسدي، وبرغم أن الوقت كان ضحى إلا أن السماء كانت تمطر نجوماً !

أكتوبر ٢٠١٣

هاملتون

Twitter: @ketab_n

إصدارات المؤلفةفي بغداد

- أعتذر نيابة عنك.. قصص.. ١٩٩٣.
- قاب قوسين مني.. قصص ١٩٩٨.
- عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.. بيروت
- قاب قوسين مني.. قصص.. ط٢، ٢٠٠٠.
- بنت الخان.. رواية ٢٠٠١.
- وتلك قضية أخرى.. قصص ٢٠٠٢ وهي المجموعة الفائزة بالجائزة الأولى لأدب المرأة العربية عن أندية فتيات الشارقة ١٩٩٩.
- كل شيء على ما يرام.. قصص ٢٠٠٢.
- ما بعد الحب.. رواية ٢٠٠٣ وقد ترجمت إلى الانكليزية عن دار سيراكيوس يونفيرستي بريس الأمريكية ٢٠١٢.
- في الطريق إليهم.. رواية ٢٠٠٤.
- مطر الله.. رواية ٢٠٠٨.
- حبيبي كوديا.. قصص ٢٠١٠.
- هدية حسين في خمس روايات..قراءة لخمس من روايات الكاتبة بأقلام نقاد عراقيين وعرب ٢٠١١.
- أن تخاف.. رواية ٢٠١٢.
- صخرة هيلدا.. رواية ٢٠١٣.
- عن دار نارة للنشر والتوزيع في عمان صدرت رواية زجاج الوقت ٢٠٠٦.
- وعن دار ورد في عمان صدر كتاب بعنوان شبابيك، قراءات في القصة والرواية.
- وعن دار فضاءات للنشر والتوزيع في عمان صدرت، في البيت المسكون.. قصص ٢٠٠٨ ورواية نساء العتبات ٢٠١٠.

Twitter: @ketab_n

... حالما دخلنا المدرسة توجّه أبي الى غرفة المديرة، كنت لمّا أزل في بداية العام الدراسي من الصف الرابع الابتدائي، لم أكمل التاسعة من العمر، طرق أبي الباب المفتوح فرفعت المديرة الشخينة رأسها وأزاحت خصلة الشعر الحمراء عن جبينها، كانت تقرأ في دفتر، وعلى الطاولة فنجان قهوة، رائحة القهوة تضوع في أرجاء الغرفة مختلطة بالعطر ذاته الذي ينبعث من جسدها كل صباح أثناء الاصطفاف اليومي.. ما إن رأتني حتى ازورّ وجهها ورمتني بنظرة متوعدة سأعرف سببها بعد قليل.. وقف أبي قبالتها وحياها فلم ترد على تحيته، بل قالت بعصبية:

ـ إسمع يا سيد ياسين، ابنتك هذه لا أريدها في مدرستي، إنها تفسد أخلاق التلميذات.

أبي الذي لا يعرف عن ماذا تتحدث المديرة حتى تلك اللحظة ردّ عليها:

ـ يا حضرة المديرة، كيف لهذه الطفلة الصغيرة أن تفسد أخلاق التلميذات؟

علا صوت المديرة بحنق:

ـ هل تعاشر نساءك أمام مرأى ابنتك يا رجل؟ هل تضعها في السرير عند المعاشرة؟

شعر أبي بارتباك والتفت إليّ فغضضت النظر، كان وجهه مخطوفاً، أظنه كان يبحث عن كلمات لم يجدها فقال كلمة واحدة:

ـ أنا؟

ردت المديرة ساخرة:

ـ وهل أتكلم مع رجل غيرك في هذه الغرفة؟

صمت أبي لأنه ما يزال يبحث عن كلمات فاستأنفت المديرة:

ـ ابنتك هذه تحكي للتلميذات بأنك كل ليلة...

ISBN 978-614-419-386-0